

كتاب الجمهورية

مكتبة الإسكندرية

الحريق .. والإحياء

د/شعبان عبد العزيز خليفة

كتاب الجمهورية

نوفمبر ٢٠٠٠م

رقم الإيداع ١٦٩٣٥ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى ٠ ـ ٣٠٧ ـ ٢٣٦ ـ ٩٧٧ ISBN

شركة الاعلانات الشرقية - مطابع دار «الجمهورية» للصحافة

كتاب الجمهورية

مكتبة الاسكندرية
الحريق.. والاحياء

د. شعبان عبد العزيز خليفة

الإشراف الفنى :

مصطفى كامل

توطئة

تعتبر مكتبة الاسكندرية القديمة أكبر وأضخم مكتبات العصور القديمة والوسطى على السواء؛ حفظت الفكر الانسانى لمدة تطول إلى ستة قرون على الأقل وقد تمتد فى نظر البعض إلى تسعة قرون عددا.

ولم تكن مكتبة الاسكندرية مجرد مكتبة لحفظ وتنظيم وتحليل وتيسير الافادة من مصادر المعلومات ولكنها كانت أكاديمية كاملة لترقية العلوم وتطويرها ومكانا لاجراء التجارب ومدرسة لتعليم العلوم ومكانا للبحث والدرس يؤمه العلماء من كل حدب وصوب.

بيد أن مكتبة الإسكندرية كانت لغزاً فى نشأتها وكانت لغزاً فى مصيرها ونهايتها. هى لغز لم نستطع حتى الآن حله فيمن أنشأها والدوافع الحقيقية والأسباب الكامنة خلف إنشائها، هى لغز فى مصيرها ونهايتها؛ متى اختفت المكتبة من الوجود؟ وكيف اختفت؟ هل احترقت أم حرقت؟ من أحرقها؟ هل هم الرومان أم المسيحيون أو المسلمون؟ وإذا لم يكن الحريق هو السبب فى اختفائها فلماذا لم يصلنا منها شيء البتة؟ هل اختفت بفعل الشيخوخة وعوادى الزمن الطبيعية؟

المشكلة الحقيقية فى الإجابات على كل هذه الأسئلة هى أننا لا نملك أية أدلة نقلية مادية وكل مالدينا هو أدلة عقلية ومرويات وسوف نحاول على الصفحات التالية أن نبسط تاريخ مكتبة الاسكندرية القديمة نشأة ومصيرا عارضين لكل وجهات النظر التى قيلت فى هذا الصدد.

وفى نهاية القرن العشرين جرى مشروع إحياء مكتبة الاسكندرية أى بعد نحو خمسة عشر قرنا من اختفائها؛ وسوف نحاول أيضا فى نهاية بحثنا هذا أن نعرض لخطوط مشروع الإحياء القائم وما وصلت إليه الجهود المبذولة فى هذا السبيل.

والله من وراء القصد،

أ.د. شعبان عبدالعزيز خليفة
رئيس قسم المعلومات
آداب القاهرة

قائمة المحتويات

الفصل الأول

الفصل الثانى

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل الأول
الاسكندرية القديمة والحضارة الهللينية

أنشأ الاسكندر الأكبر فى كل بلد يغزوه ويفتحه مدينة تعرف باسمه «الاسكندرية» وربما يكون قد خطط لانشاء مكتبة فيها أيضًا أو أنشأها بالفعل. بيد أن اسكندرية مصر كانت أجمل الاسكندريات على الأطلاق. وقد وقفت على عبارة فى وثيقة قديمة تؤكد على هذا المعنى تقول العبارة «نعم هناك مدن كثيرة ولكنها مدن محلية وتبقى الاسكندرية مدينة العالم كله».

ولعل مصدرنا الأساسى عن مدينة الاسكندرية القديمة هو كتاب سترابون المسمى الكتاب السابع عشر والذى وصف فيه المدينة حوالى ٢٤ ق.م. ومعظم من كتبوا عن تأسيس مدينة الاسكندرية يعتمدون عليه.

لقد حقق الاسكندر الأكبر انتصاراً سهلاً على الفرس فى مصر وكان من اليسير عليه الاستيلاء عليها ومن ثم كان عليه أن يظهر الود والاحترام للمصريين وآلهتهم وأن يتلقى بركات الإله آمون إله مصر الأعظم فى واحة سيوة وبالتالى أبحر من ممفيس (ميت رهينة) فى النيل إلى البحر الأبيض عند كانوبوس المصب (الفرع) الغربى للنيل وقد دارت سفنه حول بحيرة المريوطية ورست هناك. وكانت هناك على اليابسة قرية صيادى السمك المصريين تسمى راكوتيس (راقودة) وهى عبارة عن لسان من الأرض عرضه نحو أربعة كيلومترات وطوله بين البحر والبحيرة نحو سبعة كيلومترات تمثل شاطىء البحر فى تلك المنطقة وتقع جنوب هذا اللسان بحيرة المريوطية وكانت واحدة من بحيرات كثيرة انتشرت فى دلتا النيل آنذاك (وهى شبيهة ببحيرات ومستنقعات دلتا المسيسبى). وشمال هذا اللسان كان هناك بطبيعة الحال البحر الأبيض المتوسط وتظهر فيه فى تلك البقعة جزيرة طويلة ضيقة هى جزيرة فاروس التى تبعد عن الشاطىء بنحو ميل وهى تحمى الشاطىء خلفها من الرياح والعواصف والأمواج العاتية وتؤمن أساسيات الميناء الآمن المطمئن الذى يجمع ملامح الطبيعة وصنعة الانسان حيث تم مد

جسر بين هذه الجزيرة وبين الشاطىء بطول ٤٢٧٠ قدمًا أى بنحو ١٣٠٠ متر. ونتيجة لإنشاء هذا الجسر أصبح هناك ميناءان أحدهما شرقى عرف بالميناء الكبير والثانى غربى عرف بالصغير أو العود الحميد. وكان الميناء الشرقى هو بطبيعة الحال أهمها فى العصرين البطلمى والرومانى.

وفى اليوم الخامس والعشرين من شهر طيبى (بتقويمنا الحالى العشرون من يناير سنة ٣٣١ق.م) من تحديد الاسكندر الأكبر لموقع المدينة فى المكان المذكور بدأت أعمال تأسيس مدينة الاسكندرية المصرية وقد أصدر الاسكندر قراره الشهير بذلك. وهذا التاريخ هو الذى جرى عليه الاحتفال السنوى بقيام مدينة الاسكندرية طوال الحقبة الهللينية. وقد كان الاسكندر يتابع بنفسه أعمال التخطيط والتصميم ووضع حدود المدينة وتحديد مواقع معابد الآلهة والأعمال العامة. ولقد عهد الاسكندر الأكبر إلى مهندسه المعمارى الذى صحبه فى حملته على مصر: دينوقريطس بوضع المخطط العام وتنفيذ بناء المدينة التى أريد لها أن تأتى مترامية الأطراف فخمة المبانى تتوسط العالم المتحضر المعروف آنذاك سيدة التجارة من الشرق والغرب مركز الفنون والآداب والفكر فى العالم. وقد وعد دينوقريطس بإقامة مبان تناطح السحب؛ وقصور غاية فى الفخامة ومعابد تشيع الرهبة والطمأنينة.

وهكذا فى شتاء سنة ٣٣١ ق.م، كانت أعمال الانشاء قد بدأت فى المدينة مدينة الاسكندر ابن فيلبس المقدونى؛ المدينة التى لم يرها الاسكندر نفسه أبدا والتى ربما يكون قد دفن فيها جثمانه ورفرفت عليها روحه. وقد عين الاسكندر بعد مغادرته مصر كليومينس واليا عليها وجابيا لضرائبها. وقد كان واليا سيء الخلق جشعا يمارس الغش والخداع مع كل خلق الله من تجار إلى موظفين إلى كهنة وقد قال فيه آريان «إنه شيطان بشرى ارتكب أبشع الفظائع فى حق مصر».

وما يعنينا من ذكر هذا الرجل كليومينس هنا هو أنه بدأ بناء الاسكندرية حيث قال عنه أرسطو أن الاسكندر الملك قد ألقى إليه الأمر أن ينشيء المدينة قرب جزيرة فاروس وأن ينقل إليها الأسواق التى كانت موجودة فى كانوبوس. ويصفه البعض بأنه هو

الآخر كان مهندسًا معماريا إلى جانب دينوقريطس. ونحن فى حقيقة الأمر لا نعرف على وجه التحديد ماذا قام به كليومينس النوقريطى فى بناء مدينة الاسكندرية. ولقد مات الاسكندر سريعا سنة ٣٢٣ ق.م. وعند توزيع امبراطوريته أصبحت مصر من نصيب البطالمة، واستمر كليومينس فى ظل بطليموس الأول جابيا للضرائب وقد شك فى أمره بعد ذلك وحكم عليه بالاعدام وصودرت ثروته الضخمة التى كونها من دماء الناس.

ومن هنا يتفرد دينوقريطس بدور المعمارى الوحيد فى بناء الاسكندرية، وقد أقام بالفعل المبانى الرئيسية فى المدينة. وقد نمت المدينة فى عهد بطليموس سوتر (أول مرزبان على مصر حتى ٣٠٥ ق.م ثم ملكا على البلاد حتى ٢٨٣ ق.م) وبطليموس الثانى فيلادلفوس ابنه نموا سريعًا على الرغم من أن جميع الحكام البطالمة بعدهما أحاطوها بما تستحقه من عناية وتطوير. وقد ظلت المدينة الرئيسية فى العالم القديم منذ وفاة الاسكندر الأكبر ٣٢٣ ق.م وحكم بطليموس الأول حتى النصر النهائى لحفيد قيصر المحظوظ أوغسطوس ٣٠ ق.م - كليو باترا، حين أخذت تتوارى عن الانظار وتخفت من حولها الأضواء.

ويسجل لنا القدماء وعلى رأسهم استرابون وبلوتارخ المخطط العام للمدينة وهو على هيئة الكلامس اليونانى أى العباءة العسكرية. لقد كانت المدينة تغسل بمياه البحرين: المتوسط من الشمال وبحيرة مريوط من الجنوب، لقد شيدت المدينة على رقبة ضيقة من اليابسة تنتشر فيها تلال غير منتظمة الارتفاعات تجرى من الشمال الشرقى نحو الجنوب الغربى لمسافة تقترب من ستة كيلومترات وعرضها غير منتظم ويقترب من نصف الطول ويبلغ قطر المدينة نحو خمسة وعشرين كيلو مترًا داخل أسوارها.

وقد قسمت المدينة من الداخل على أساس العرقيات أو الجنسيات التى كانت تقطنها أو تقيم فيها وذلك على النحو الآتى:

١ - حى المصريين وهم أهل البلد الأصليون وكان يطلق عليهم الراقوط وفى هذا الحى قام معبد السيرابيوم والذى اعتبر أهم مبنى فى تلك المدينة بل فى كل أنحاء

العالم ولم يكن يبزه سوى الكابيتول فى روما.

٢ - حى البروكيوم (وأحيانا البروكيون) أو ما أطلق عليه الحى الملكى اليونانى المقدونى والذى كان يحتل واجهة الميناء الكبير كلها ابتداءً من قمة التل لوكياس وحتى حاجز الأمواج (هيبتاستاديوم) الذى كان يربط المدينة بجزيرة فاروس. وفى هذا الحى الملكى كان يسكن اليونان والمقدونيون والأجناس الأخرى الكثيرة من أوروبا وآسيا التى وفدت لتعيش فى الاسكندرية وفى هذا الحى أيضا نصادف الدواوين الحكومية وحوانيت التجارة الرئيسية والمبانى العامة الفخمة الكبيرة وفوق كل هذا ضريح العظماء (سوما) المتمصرين؛ والمتحف الكبير بمكتبته ذائعة الصيت موضع كتابنا هذا وملحقاتها مثل مسرح المحاضرات العامة والمرصد الفلكى وكانت تربط فيما بينها ببهو أعمدة رائع وفخم مصنوعة من الرخام المصرى النادر، وخلف هذا كله وعلى الشريط الممتد على قمة تل لوكياس ووسط الحدائق الغناء وصفوف الأشجار الباسقات والنباتات والورود والزهور قامت قصور البطالمة، صفوف من المبانى الفخمة الفسيحة والعزب التى امتدت حتى قلب المدينة اليونانية.

٣ - الحى اليهودى. ومن المدهش أنه كان من الامتداد والاتساع بحيث يعدل الحى اليونانى نفسه أى الحى الملكى وكانت له أسواره الخاصة به التى تفصله عما سواه. وفى هذا الحى كانت تسكن الجالية اليهودية الضخمة، ولا يجب اعتبار هذا الحى بمثابة جيتو لليهود ولكنه كان فى حد ذاته مدينة قائمة بنفسها يحكمها الإتنارش اليهودى مباشرة ولهم المجلس الخاص بهم والقوانين الخاصة المنظمة لشئونهم. وكانت هناك معارك ومشاجرات مستمرة وكثيرة بين اليونانيين واليهود فى الاسكندرية مما أدى إلى إلغاء الامتيازات الخاصة الممنوحة لهؤلاء اليهود، تلك الامتيازات التى كانت تتقلص أو تزداد (وخاصة فى ظل الرومان) طبقا للأوضاع السياسية المتقلبة التى كانت تتعاور تلك المدينة المضطربة.

وإذا كانت تلك هى الأحياء الثلاثة الرئيسية فى مدينة الاسكندرية، فقد ورد فى

المصادر أن المدينة ككل كانت مقسمة إلى خمسة أقسام تحمل الحروف الخمسة الأولى من الأبجدية اليونانية: ألفا، بيتا (ويقع فى نطاقهما قصور الملوك البطالمة والمتحف والمكتبة وضريح العظماء (سوما) أو ضريح الاسكندر كما أطلق عليه)، جاما، دلتا (ويقع فى نطاقهما الحى اليهودى)، إبسلون (وأغلب الظن أنه كان يقع فى نطاقه الحى الوطنى). وللأسف لا نعرف على وجه التحديد مواقع هذه الأقسام الثلاثة الأخيرة الآن.

وفى داخل الأحياء الثلاثة: المصرى واليونانى واليهودى ذات الأقسام الخمسة المرقمة هجائيا كان السواد الأعظم من السكان ينقسم إلى جماعات أو طبقات اجتماعية يمكننا أن نتميز أهمها:

١ ـ طبقة الأثرياء الشرقيين المرفهين.

٢ ـ طبقة العسكريين المقدونيين.

٣ ـ طبقة اليونانيين من اليونان الأم والجزر المحيطة فى البحار الهللينية.

٤ ـ طبقة اليونانيين ذوى الأصول الأفروآسيوية والذين انحدروا أساسًا من كيرين وقالقيدونيا.

٥ ـ طبقة السوريين وكل ولايات آسيا الصغرى.

٦ ـ طبقة العرب والبابليين والآشوريين والميديين والفرس.

٧ ـ طبقة الأيبريين ومن والاهم من وراء أعمدة هرقل وما وراء الهند.

٨ ـ طبقة القرطاجنيين والإيطاليين والغاليين.

٩ ـ طبقة المفكرين والباحثين والشعراء والنقاد والعلماء والفنانين من كل فئة ورؤساء المتحف والمكتبيين فى المكتبة.

١٠ ـ التجار من جميع أنحاء العالم ومن مصر.

١١ ـ طبقة اليهود وهم كثيرون ومهمون.

١٢ ـ طبقة العامة والتى تتراوح من المشتغلين بالسياسة (من غير المصريين) إلى طبقة العمال والحرفيين (وهم أساسًا من المصريين).

١٣ ـ طبقة العبيد من جميع أنحاء الأرض سواء عبيد الحكومة أو عبيد الخاصة وهم الوصمة التى وصمت الحضارة القديمة وخاصة الكلاسيكية.

لقد وصلتنا قطعة بردى ترجع إلى القرنين الثانى والثالث بعد الميلادى تعرف باسم «نبوءة الخزافين» نجد فيها أحسن عبارة لوصف مجتمع هذه المدينة «هذه المدينة كانت حضانة عالمية، استقر فيها ناس من كل جنس».

وكانت الاسكندرية منذ إنشائها واحدة من أجمل مدن العالم. لقد ران على روما أكثر من سبعة قرون كى تتحول من بيوت الطوب إلى بيوت الرخام فى عهد الامبراطور أوغسطوس، بينما بدأت الاسكندرية بالرخام منذ مولدها وخططت المدينة طبقا لأعظم وأروع تخطيط معمارى بحيث تقوم على شوارع واسعة عريضة بزوايا قائمة مع شوارع جانبية عريضة هى الأخرى بما يسمح للخيول وعربات الخيول أن تسير فيها بسهولة.

لقد قطع شارعان كبيران المدينة إلى أربعة أجزاء غير متساوية، وتم رصف هذين الشارعين بمربعات من الجرانيت. كان أحد الشارعين هو الطريق الكانوبى الشهير بالميزونبديوم ويبدأ هذا الشارع عند بوابة كانوبوس فى الحى اليهودى ويمتد لمسافة ستة كيلومترات تقريبًا من الشمال الشرقى وحتى الجنوب الغربى مخترقاً الحى الملكى ويخرج من الحى المصرى (راقوط) عن طريق بوابة نكروبوليس وحيث يوجد فى غربى المدينة ما عرف باسم «مدينة الموتى». والشارع الرئيسى الثانى كان يمتد من الجنوب الشرقى حتى الشمال الغربى أى من بوابة الشمس على بحيرة مريوط أو بالقرب منها حتى بوابة القمر حتى حاجز الأمواج الذى يربط الحى الملكى بجزيرة فاروس وإلى الشرق أكثر مع الميناء الكبير. لقد كان عرض الشارع من هذين الشارعين أكثر من

ثلاثين مترا (١٠٠ قدم)؛ وكانا يتقاطعان بزاوية قائمة عند حى البروكيوم أى الحى الملكى أو اليونانى. وعلى جانبى كل شارع منهما كان هناك صف من الأعمدة الرخامية كانت تتخللها مناطق مغطاة لحماية المشاة من العواصف والأمطار على نحو ما نصادفه اليوم فى شوارع بولونيا المغطاة.

وكانت باحات الشوارع تزين بالآثار التى يبرز بينها عدد كبير من المسلات وأبو الهول التى تذكر المصريين العظماء بسالف زمانهم ومجدهم.

وإلى جانب الشارعين الكبيرين كان هناك على الأقل سبعة شوارع أخرى أصغر متوازية معهما على امتداد طول المدينة مع الشارع الطولى الكبير ولكن الواحد من تلك الشوارع لم يكن ليزيد طوله عن ثلاثمائة متر (١٠٠٠ قدم)، كما كان هناك على الأقل أحد عشر شارعًا تمتد بالتوازى مع وتضم شارع الشمس ـ القمر (أى الشارع المتقاطع الكبير) وكان طول الواحد منها نحو أربعمائة متر (١١٠٠قدم) وكان هناك سلسلة متواصلة من الشوارع العمودية بعرض المدينة.

وكانت مساكن المدينة حتى فى المناطق المتواضعة تبنى أساسًا من الحجر، ولا تستخدم فيها الأخشاب فى الأرضيات وتقوم الأسقف على عقود من الحجر أيضا. وكانت هناك قنوات توصل مياه النيل إلى البيوت وكانت المياه تنقى أساسًا قبل أن تصل إلى البيوت. وكانت أسطح البيوت تغطى بطبقة من اللبش أو الحجارة. وكان لعدم استخدام الخشب فى الأرضية أو السقوف والأسطح ميزة مقاومة الحريق قدر الامكان أكثر من أية مدينة أخرى فى العصور القديمة.

ولم تلبث المدينة مع مر السنين أن توسعت توسعًا كبيرًا خارج الأحياء الثلاثة الموجودة على الشريط الأساسى وفى جزيرة فاروس.

ونشأ خارج تلك المناطق أسواق تجارية كبيرة ومصانع مختلفة، ومعاهد للثقافة والفكر متنوعة، ومساكن لأناس جاءوا إلى المدينة من دول مختلفة. ولقد ازدحم الميناءان بالسفن الراسية والغادية والقادمة. وكان هناك ميناء على كل جانب من جانبى الهيبتاستاديوم حيث كانت تأتى السفن من كل حدب وصوب وكانت هناك مخازن

ضخمة تقع إلى الغرب من حاجز الأمواج لتخزين الحبوب والمنتوجات التى ينتجها وادى النيل الخصب، تمهيدا لتصديرها إلى بلاد اليونان والرومان وكانت هناك سلالم رخامية تتدرج من تلك المخازن إلى مياه البحر لتسهيل التحميل والتنزيل.

ولقد كانت هناك ثكنات ومنشآت عسكرية للجنود المقدونيين والمرتزقة ومصانع للأسلحة لزوم الحروب وكانت هناك ملاعب وستاد رياضى وساحات لسباق الخيول وعربات الخيول. كما شوهدت مسارح المحاضرات العامة والقراءات العامة والمسرح اليونانى المكشوف للمسرحيات وحيث كان المشاهدون يمكنهم من مقاعدهم أن يروا شعلة فنار فاروس إحدى عجائب العالم القديم. ويعتبر هذا الفنار هو الأنموذج الذى أخذت عنه كل الفنارات. هذا الفنار الذى بناه سوستراتوس السنيدى، بلغ ارتفاعه ٥٩٠ قدما (حوالى ٢٠٠ متر) ويقال إنه استمر ولو جزئيا فى الوجود حتى القرن الرابع عشر حين دمره الزلزال وألقى به فى البحر. وقد انتشر المسرح الكوميدى إلى حد كبير فى الاسكندرية كما انتشر مسرح العرائس وكان صاحب هذا الاختراع هو المهندس العظيم هيرون الذى أبدع كثيراً من مسرحيات العرائس تلك. وانتشرت فى الاسكندرية معابد الآلهة جميعا وخاصة آلهة اليونان والمصريين كلها تجمعت فى السيرابيوم وحيث كان من المألوف أن يجتمع اليونان والمصريون فى عبادة جماعية عامة. لقد أقيم البانيوم (مزار مقدس) على ربوة صناعية ومن يتسلق تلك الربوة ويصل إلى قمة البانيوم يستطيع أن يرى الاسكندرية كلها. وكانت هناك حدائق للحيوانات البرية وحدائق للنباتات الاستوائية وفوق كل ذلك كان هناك شىء لا يوجد فى أية مدينة فى العالم القديم ألا وهو متحف ومكتبة الاسكندرية.

لقد وصف أخيليس تاتيوس آخر القصاصين اليونانيين وربما يكون قد استقر نهائيا فى الاسكندرية، وصف هذه المدينة الجميلة فى افتتاحية كتابه القصصى الخامس «كليتوفون وليوسبى» وجاء فى هذا الوصف: «بعد رحلة استمرت ثلاثة أيام وصلنا إلى الاسكندرية وقد دخلتها من بوابة الشمس كما كانت تسمى وقد ووجهت منذ اللحظة الأولى بجمال وفخامة المدينة التى ملأت عينى بالبهجة. ومن بوابة الشمس

وحتى بوابة القمر - الحارسان المقدسان للمداخل - كان هناك صفان مزدوجان من الأعمدة على جانبى الطريق وفى الوسط كان هناك الجزء المكشوف من المدينة ويخرج من هذا الطريق شوارع جانبية عديدة. وعلى بعد مئات قليلة من الياردات وصلت إلى حى جديد أنشىء بعد وفاة الاسكندر مما يعتبر مدينة ثانية. وهذه المدينة الثانية كانت مقسمة إلى ميادين تقوم عليها صفوف من الأعمدة تتعامد عليها صفوف أخرى بزوايا قائمة ولقد حاولت أن أسرح الطرف على امتداد كل شارع ولكن عينى لم تكن تستطيعان الألمام بكل جمال الشارع مرة واحدة ولقد استطعت أن التقط بعض المناطق بعينى والبعض الاخر لم أستطع، وكل ما وقعت عليه عيناى كان جميلا. ولقد جاهدت حتى أرى جميع الشوارع. وأخيرا كلّت عيناى من كثرة النظر إلى هذا الجمال. ولقد تسمرت أمام حقيقتين هامتين إزاء تلك المدينة الأولى عدم قدرتى على المفاضلة بين ما هو أعظم وما هو أفخم وما هو أجمل: المدينة نفسها أم سكانها لان الأولى كانت كبيرة جدا مثل قارة والثانية كانت أكبر من أن تحصى؛ لقد كانت أمة بأكملها. أما الحقيقة الثانية فإنها تأتت من كثرة نظرى إلى المدينة وتعجبى هل يستطيع أى جنس أن يملأها عن آخرها وكلما نظرت إلى السكان تعجبت هل تستطيع أى مدينة أن تستوعبهم جميعا. لقد كانت معادلة رائعة.

لقد تصادف وقت وصولى الاحتفال المقدس بإله الاغريق الأكبر المسمى زيوس وكذلك احتفال المصريين بسيرابيس، وكان هناك مواكب متلاحقة من حملة المشاعل. ولقد كان أعظم احتفال شاهدته فى حياتى فقد كان الوقت مساءً وقد غربت الشمس ولم تكن هناك أية علامة على الليل من شدة الضوء كما لو كانت ثمة شمس أخرى قد سطعت ولكنها موزعة على قطع صغيرة فى كل اتجاه ولقد وقر فى ذهنى أن السماء تحسد المدينة على كل هذا الجمال.

وإلى جانب هذا الوصف الرائع الذى قدمه لنا الروائى السكندرى أخيليس تاتيوس، نضيف بعض ما ذكره الجغرافى الرائع سترابون الذى زار مصر أيام أوغسطوس وعاش فى الاسكندرية (٢٥ق.م - ٢٠ق.م) مما يعتقد معه أنه استخدم مكتبة الاسكندرية فى

أبحاثه واقتبس الكثير من أعمال المؤلفين الذين اقتنت المكتبة أعمالهم على نحو ما نصادفه فى كتابه (الجغرافيا) والوصف الذى قدمه لنا يبدأ منذ دخوله الميناء الكبير وحيث عن يمين الداخل إلى الميناء نصادف جزيرة وبرج فاروس وعلى اليسار نجد سلسلة الحواجز وقنة تل لوكياس وعلى قمته القصر الملكى وعندما نبحر قليلا داخل الميناء نجد على اليسار بقية من القصور الملكية التى تتبع القصر الموجود على قنة التل وحولها العديد من المساكن المدهونة بدهانات بديعة ملونة. وفى مقدمة الميناء نجد الرصيف الصناعى الخاص بالملك وأمامه جزيرة صغيرة تعرف باسم أنتيرودس أقيم عليها قصر وميناء صغير. وعلى هذا الرصيف الملكى أقيم مسرح عرف آنذاك باسم (بوسايديوم). وهو على شكل كوع ناتىء من الإمبوريوم، وإلى هذا الكوع من اليابسة قام أنطونيو بإضافة حاجز للأمواج يمتد داخل الماء وعلى امتداد هذا الحاجز من الطرف الآخر بنى مسكنا ملكيا أسماه تيمونيوم حيث اعتزم أن يقضى بقية أيامه الأخيرة فى عزلة. ويأتى وراء هذا كله القيصارية (سيزاريوم)، الامبوريوم، والمخازن، يليها بيوت السفن التى تمتد حتى هيبتاستاديوم هذا كله نصادفه عند دخولنا الميناء الكبير.

ويستأنف سترابون وصفه للمدينة فيقول: وبعد الهيبتاستاديوم أتينا إلى ميناء إينوستوس (إلى الغرب). وبعد ذلك ثمة ميناء صناعى يسمى سيبوتوس ومزيد من بيوت السفن يليه ترعة صالحة للملاحة تؤدى إلى بحيرة مريوط؛ وخارج تلك الترعة أو القناة نجد على اليسار مرفأ صغيرًا للمدينة وعندما أشرفنا على ضاحية نيكروبوليس ذات الحدائق والجداول ومنشآت تحنيط أجسام الموتى داخل القناة. وعلى الأكروبوليس فى راقودة (راكوتيس) أقيم معبد السيرابيوم العظيم.

لقد غصت المدينة بالمبانى العامة والمقدسة، لعل أجملها مبانى المعهد العلمى (الجمنازيوم) ذات الأروقة المعمدة التى يزيد الواحد منها فى الطول عن مجرد الاستاد. وفى وسط المدينة نجد محاكم العدل وهنا أيضا نجد البانيوم وهو تل صخرى يتم الصعود إليه عن طريق حلزونى ومن قمته تشاهد المدينة كلها. ويمتد الشارع العريض بالطول من نيكروبوليس مارًا بالجمنازيوم وحتى البوابة الكانوبية وبعدها يأتى المرء إلى

هيبودروم خارج أسوار المدينة، وعندما نعبر هيبودروم نأتى إلى مستعمرات نيكوبوليس حيث هزم أوغسطوس البقية الباقية من اتباع انطونيو والبوسيس على القناة الكانوبية، وهو أيضا مكان للهو والعربدة التى لا حياء فيهما للذين يريدون أن يحيوا حياة كانوبية.

لقد ضمت مدينة الاسكندرية أحياء أكثر من جميلة وقصوراً ملكية تبلغ مساحتها ربع مساحة المدينة كلها «وكان هناك مبنى فوق مبنى» وكلها مربوطة ببعضها البعض.

لقد كان المتحف جزءا لا يتجزأ من القصور الملكية وكان فيه ممشى عام تنتشر على جانبيه المقاعد وكان فيه بيت كبير يجتمع فيه العلماء من كل حدب وصوب يتشاطرون العلوم.

وكان ضريح العظماء هو الآخر جزءا هاما من القصور الملكية. وكان المكان مخصصًا كمدافن للملوك وللاسكندر الأكبر.

لقد تبلورت مميزات هذه المدينة فى أنها:

١ - المكان الوحيد فى مصر ذو الموقع الطبيعى المهيأ لتجارة البحر حيث الميناء الرائع وتجارة البر حيث كان النيل يحمل كل شىء إليه. إنها أعظم مركز تجاري فى كل العالم المعمور.

٢ - امكانية توصيل مياه الشرب العذبة من النيل إليها بسهولة عن طريق فرع كانوب.

٣ - امكانيةُ وصل جزيرة فاروس بها على نحو ما صادفناه قبلاً.

٤ - تعتبر جزيرة فاروس خط دفاع أمامى للمدينة.

٥ - وجود بحيرة مريوط فى الجنوب يشكل خط دفاع جنوبى عن المدينة، وتغسل المدينة بمياهها من الظهر كما يغسل البحر المدينة بمياهه من الوجه.

٦ - اعتدال المناخ على مدار العام.

لقد غدت مدينة الاسكندرية سيدة مدن العالم بلا منازع وسيدة طرق التجارة وقلب

مراكز الفكر والثقافة فى العالم المعروف آنذاك.

لقد كان هناك فى تلك المدينة أربعة مبان تذكارية فاقت وبزت أى نظير لها مما وصلنا خبره. ونأتى على الصفحات التالية ببعض التفاصيل عن كل منها:

ضريح العظماء (سوما)

توفى الاسكندر الأكبر فى بابل فى الأولمبياد الرابع عشر بعد المائة (وفى التقويم الجريجورى يكون التاريخ هو ١٣ من يونية ٣٢٣ ق.م. وكان آنذاك فى سن الثانية والثلاثين وثمانية شهور طبقا لما قال به آريان. ومن الناحية العملية البحتة بقى جثمانه مهملاً هناك وانصرف جنرالاته إلى التناحر على اقتسام السلطة واقتسام الامبراطورية التى خلفها وبعد شهر من موته قام المصريون المهرة بتحنيط الجثمان، ثم لف الجثمان بأرقى أنواع الكتان الفاخر وفوقه لف بصفائح رقيقة من الذهب وذلك حفاظًا على الجسم الرائع الجميل للبطل الاغريقى ويقص علينا ديودورس الصقلى كيف أعد الكفن ليناسب حجم الجسم. وهذا الكفن هو الآخر من الذهب وكان فيه فجوات ملئت بالتوابل النادرة للحفاظ عليه وكان للكفن أيضا غطاء آخر من الذهب المطروق لكى يناسب أيضا مقاييس جسم الاسكندر. وإن دراسة متأنية للنص الذى أورده هذا المؤرخ تكشف عن أن الاسكندر كان يحنط طبقا للطريقة المصرية شأنه شأن الفراعنة العظماء فى مصر القديمة. وقد صنعت عربة جنائزية غير عادية فى فخامتها وصلابتها حتى تتحمل وعورة الطرق الأسيوية وقد زينت هذه العربة بزينات هللينية شرقية غاية فى الأبهة. وفى مركز هذه العربة الجنائزية من أعلاها شيدت غرفة مستطيلة للجثمان مساحتها ١٢ × ١٨ قدمًا على هيئة معبد أيونى ذى أعمدة ذهبية وفوق الأعمدة سقفه هو الآخر من الذهب مرصع بقطع من الأحجار الكريمة، وقد أحيطت الأعمدة هى الأخرى بكورنيش من صفائح الذهب ولم تكن ثمة جدران لتلك الحجرة بل مجرد شبكة من الذهب حتى تسمح برؤية الناووس أى التابوت المسجى فيه الجثمان. وكما يقول ديودورس الصقلى كانت الشبكة الذهبية هذه تقوم على الافريز الذهبى الذى أشرت إليه سابقًا وكانت هذه الشبكة المذهبة تصور:

١ ـ الاسكندر فى عربته الملكية مع حارسيه المقدونى والفارسى.

٢ ـ أفيال الحرب تتبع الملك وحاشيته.

٣ ـ سلاح الخيالة فى هيئتهم الحربية.

٤ ـ السفن الحربية فى وضع الاستعداد للحرب.

وفى مدخل هذه الحجرة نصبت أسود من ذهب كحراس للجثمان الملكى. وإلى جوار هذه وعلى قاعدة عريضة وضع تاج ذهبى كبير يرتفع حتى السقف وكان هذا التاج على هيئة إكليل الغار للمنتصر، وكلما تحركت العربة الجنائزية تحت أشعة الشمس خرج من التاج ضوء يشبه الضوء المنبعث من زيوس. لقد كانت العربة الجنائزية مزدوجة المحاور وكانت عجلاتها الأربعة مصنوعة من الحديد على الطراز الفارسى ومطعمة برقائق من الذهب كما كان المحوران ينتهيان برؤوس أسود من الذهب الخالص وتخرج من أفواهها سهام ذهبية أيضًا. ويذكر ديودورس لنا أن محورى العجلات كانا مزدوين بآلة عجيبة تحمى غرفة الجثمان ومحتوياتها الثمينة من الاهتزازات العنيفة والصدمات التى تنتج عن السير فى الطرق الوعرة. وكان يجر العربة أربعة جياد فى المقدمة اثنان على كل جانب واحد أمام الثانى وخلف كل جواد كانت هناك أربع مجموعات من البغال كل مجموعة منها تتألف من أربعة بغال ومن هنا يكون عدد البغال أربعة وستين بغلاً وكانت الجياد والبغال ذات سروج مزينة بحليات الذهب المبالغ فيها وقد صحب العربة الجنائزية فريق من المهندسين والميكانيكيين وممهدى الطرق. ومن المؤكد أنه كان يحمى هذا كله فرقة مختارة من الجنود كانت فى شرف الوداع الأخير لقائدها الراحل العظيم. لقد استغرق تنفيذ هذا العمل والاستعداد له عامين كاملين وانفقت عليه كما رأينا مبالغ طائلة للغاية ليس فقط بسبب كميات الذهب المستخدمة فيه وإنما أيضا بسبب الدقة المتناهية فى الاعداد والاستعداد.

وعلى طول الطريق من المدينة التى انطلقت منها الجنازة حتى مدينة المثوى الأخير

خرجت الجموع لتشهد الموكب الفخم الضخم. لقد خرج المحفل الجنائزى من مدينة بابل واخترق بلاد ما بين النهرين وسط المظاهر العسكرية التى تليق بالقائد ثم اخترق سوريا حتى وصل إلى دمشق ثم إلى معبد آمون فى الصحراء الغربية لمصر حتى يبارك الإله ابنه المقدس ثم ينقل الجثمان بعد ذلك إلى مدينة إيجه المقدونية القديمة حتى يدفن الاسكندر هناك مع بقية الملوك من الأسرة الحاكمة. وهنا يتوقف ديودورس ويقول لنا إن هذه الخطوة الأخيرة من الموكب الجنائزى تم تغييرها فى اللحظات الأخيرة بناء على قرار من بطليموس الذى أدرك الأهمية السياسية الكبرى لدفن القائد المنتصر فى المدينة التى أنشأها فى مصر وأعطاها اسمه الخالد. ومن هنا قام بطليموس فى كوكبة من جنوده بمقابلة حملة الموكب الجنائزى وتفاوض مع قائدهم حتى يسمح له بتنفيذ الخطوة الأخيرة من مراسيم الدفن. ومن ثم حمل بطليموس الجثمان إلى منف حيث استقر هناك لفترة حتى تم تشييد مقبرة العظماء أو الضريح الأكبر فى قلب حى البروكيوم الحى الملكى فى مدينة الاسكندرية على النحو الذى بسطناه سابقًا بالقرب من الميدان الذى يتعامد فيه الشارعان الرئيسيان وهنا دفن الاسكندر فى مقبرة خاصة داخل حرم الضريح وضرب حولها سور خاص بها وقد أطلق عليها اسم (سوما) لأنها تضم جثمان أشهر رجل عرفه التاريخ. وحول هذا المكان الذى دفن فيه الملوك نشأت أفخم منطقة مقابر عرفها التاريخ. لقد صنعت هذه المقابر من أندر أنواع الرخام اليونانى والمصرى وتوفر عليها أشهر الصناع الأغريق وأمهر البنائين والمهندسين حتى تليق بالمكان الأبدى لجثمان القائد ذى الروح الخالدة وقد امتزج فى هذه المقابر فن العمارة فى القرن الخامس قبل الميلاد مع فن العمارة فى القرن الرابع قبل الميلاد. لقد أقيمت مراسيم الدفن فى ساحة الضريح ذات الأعمدة الشاهقة الفخمة ثم فى قاعة الشعائر التى تنحدر عن الساحة بضعة درجات تلك القاعة التى أطلق عليها قاعة الأحزان، وقد امتزجت فى تلك الشعائر: الشعائر الإغريقية القصيرة اللائقة بالبطل الإغريقى والشعائر المصرية الطويلة المستفيضة اللائقة بالإله الشرقى. وفى مؤخرة غرفة الأحزان هذه وضع تابوت الاسكندر مغلفا برقائق الذهب الخالص وفوق قاعة الأحزان هذه أقيم

رواق عظيم أو لنقل معبد من الرخام الأبيض على الطراز اليونانى القديم البالغ الجمال ودقة المناسيب. وفى هذا المعبد وضعت بعض متعلقات الاسكندر وبعض قطع الأثاث الجنائزى النادرة وذات القيمة العالية. وفى هذا المكان كانت تمارس طقوس العبادة العامة المشتركة بين المصريين والإغريق.

والسؤال الذى يطرح نفسه عادة فى هذا السياق هو من بنى الضريح (سوما) وأحضر جثمان الاسكندر ليدفن فى مدينة الاسكندرية المصرية؟ يعتقد الكثيرون أن بطليموس سوتر هو الذى قام بكل ذلك؛ وهذا أمر طبيعى حيث مات الاسكندر ودفن فى عهد بطليموس سوتر فى حكم مصر والاسكندرية. وربما تكون هناك توسعات قد حدثت فى الضريح خلال حكم بطليموس الثانى وخلفائه وخاصة بطليموس الرابع فيلوباتر الذى يقال أنه أعاد ترتيب وضع المقابر داخل الضريح. ولكن طبقا لأقوال بوزانياس ظل جثمان الاسكندر الأكبر فى منف لمدة أربعين سنة ولم ينقل إلى مدينة الاسكندرية إلا على يد بطليموس الثانى ابن سوتر؛ ويؤكد على ذلك ما ذهب إليه كثير من الكتاب القدامى والمحدثين حيث يعزون هذا الفضل إلى بطليموس الثانى، وإن كان ذلك لا يتسق مع الجهود الكبيرة والمخاطر التى تجشمها بطليموس سوتر للاستيلاء على الجثمان والعربة الجنائزية من قائد الموكب، ومن ثم لم يكن بطليموس الأول سوتر بالرجل الذى يترك الجثمان فى منف أو فى غيرها بل كان يرغب فى أن يعزى الفضل إليه، وقد أدرك بحسه مدى الفائدة الكبرى التى تعود على الاقليم الذى يحكمه (مصر) من دفن الاسكندر فى المدينة التى أسسها وحملت اسمه واتخذت حاضرة لمصر وأصبحت منارة للعالم، وبالتالى لم يتردد فى القيام بتلك الانجازات.

وفى هذا الصدد يقول الدكتور إدوين بيفان «لقد أكد ديودورس واسترابون وغيره من الثقاة الأقدمون أن بطليموس الأول هو الذى قام بنفسه بوضع جثمان الاسكندر فى مقبرته (سوما) فى مدينة الاسكندرية وكانت هناك حتى العصر الرومانى. وربما كانت تلك هى الحقيقة ولكن السبب وراء عبارة بوزانياس أن الجثمان بقى فى ممفيس عدة

سنوات حتى تعد العدة فى الاسكندرية لاستقباله ودفنه هناك.

وبعد ذلك انتشرت حول ضريح الاسكندر مقابر ملوك الأسرة البطلمية وبدأت بمقبرة بطليموس سوتر أخلص خلصاء الاسكندر ومؤسس الأسرة اليونانية ـ المصرية التى انتهت بموت كليوباترا بطريقة درامية؛ وقد قيل أن كليوباترا وانطونيو قد دفنا بدورهما بالقرب من ضريح الاسكندر (سوما).

وقد ظل هذا الضريح (سوما) لعدة قرون مزارا يحج إليه العظماء والسفلة من الحكام والعامة على السواء على مدار الأيام. لقد حج إلى هذا المقام قيصر وحفيده ذائع الصيت أوغسطوس الذى يقال أنه أثناء تحسسه لجثمان الاسكندر المحنط كسر جزءا من أنفه الملكى. وإلى هذا المقام حج الامبراطور سيفيروس الذى وضع فى مكتبة الضريح مجموعة من الكتب الدينية المقدسة المصرية وأغلق المكان فى وجه العامة ولم يسمح بعد ذلك بزيارتهم للمكان. فى نفس هذا المكان جاء ابن سيفيروس كاراكاللا سيىء الخلق، وبعد أن أودع فيه مجوهراته الخاصة وملابسه الامبراطورية أمر بذبح شباب المدينة الذين كانوا يسخرون من شخصيته البشعة. ولقد تواتر على هذا المكان فسباسيان، دوميتيان، هادريان، أورليان وغيرهم من أباطرة روما، ويقال أن المسلمين عندما جاءوا إلى الاسكندرية بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٢م كان الضريح مايزال فى أبهى حلله وهيئته الأصلية التى كان عليها. ولقد قال ليو أفريكانوس ـ الذى تنصر وعمده أبوه الروحى البابا ليو العاشر ـ فى كتابه (وصف أفريقيا) الذى نقله إلى الانجليزية جون بورى ما نصه؛ وكان هذا النص فى نهاية القرن الخامس عشر:

«إن مما لا يمكن إغفاله بين أطلال مدينة الاسكندرية الأثرية منزل صغير على شكل معبد تحته مقبره تحتوى على رفات نبى وملك (هكذا يسمونه) يجله المسلمون ورد ذكره فى القرآن ألا وهو الاسكندر الأكبر».

وإذا كان هذا الكلام قد ذكر فى نهاية القرن الخامس عشر فإن الأمر لا يعدو أن يكون مجرد أسطورة يتم تناقلها من جيل إلى جيل أو ربما فعلا بقايا حطام ضريح

الاسكندر الذى كان يزين المدينة لفترة طويلة، تلك المدينة التى بهتت وانهارت وتعاورتها ضروس السنين وطحنتها الأيام فغدت أثرا بعد عين وغلفتها العزلة.

وهناك دارسون وباحثون آخرون يؤكدون استمرار ضريح الاسكندر فترة طويلة بعد دخول العرب المسلمين إلى الاسكندرية من بينهم إدوارد دانييل كلارك الذى وضع كتابا قيما مثل كتاب ليو أفريكانوس بعنوان (مقبرة الاسكندر) وهذا الباحث جاء قبل شامبليون الفرنسى بفترة وهو انجليزى الجنسية وباحث فى الكلاسيكيات وقد أثبت فى هذا الكتاب أن مقبرة الاسكندر وتابوته كانا على غرار مقابر وتوابيت الفراعنة المصريين وأنها استمرت فى الوجود بنفس الفخامة والأبهة لعدة قرون بعد دخول المسلمين وربما بقيت كذلك حتى القرن الخامس عشر.

يقول إدوارد ألكسندر بارسونز أنه من المحتمل أنه البقايا الامبراطورية وضريح الاسكندر قد استمرت فى أبهتها الأصلية وفخامتها على امتداد سبعة قرون بعد إنشائها ويستشهد على ذلك بقول القديس جون كرايسوستوم بعد تدمير معبد سيرابيس والآثار الوثنية (٣٩١م) بثمانية أعوام الذى نطق به بعد الانتصار الكاسح للمسيحية بأعلى صوت «أين الآن قبر الاسكندر؟ أرونى إياه». وهكذا اختفت مقبرة البطل الاغريقى الاسكندر الأكبر التى قامت فى قلب الحاضرة المصرية والتى كانت مثار إعجاب العالم ومحط أنظارهم حتى لقد قيل: مات الاسكندر؛ دفن الاسكندر؛ تحول الاسكندر إلى تراب.

المتحف

لم يكن المتحف كما يبدو من اسمه مجرد مكان لتجميع التحف بل كان فى حقيقة أمره أكاديمية كاملة للدرس والبحث العلمى. وقد قامت هذه الأكاديمية هى الأخرى فى قلب الحى الملكى، الحى اليونانى، حى البروكيوم. وكان يتألف من مجموعة من البنايات الفخمة الضخمة المشيدة من الرخام الأبيض والحجارة البيضاء وكانت هذه البنايات عبارة عن صالات لاقامة التماثيل، ومعارض للوحات، وقاعات محاضرات ومساكن لاقامة العلماء والباحثين المغتربين والذين كان يقدر عددهم بأكثر من مائة

عالم وباحث فى الوقت الواحد، كلهم كانوا يقيمون تحت كفالة ورعاية تلك المؤسسة الملكية: المتحف. هنا كان الباحثون وبالمجان والاقامة الكاملة، يدرسون ويبحثون ويكتبون فى كل مجالات المعرفة البشرية: فى التاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والتطبيقية واللغة والأدب. وفوق كل هذا وذاك كانوا يقومون بتحقيق النصوص، ويقومون بنسخها وتعديد نسخها ويبيعونها لمن يريد أن يكون مكتبة شخصية. لقد كان كبير أمناء المتحف أو مدير الاكاديمية شخصا عالمًا بل وأهم مفكر فى عصره.

يقول بارسونز فى هذا الصدد أن المتحف كان يعتبر أكبر جامعة فى العالم الهلليني. ولم يكتف المتحف بأن يقدم للعلماء والباحثين أماكن للنوم والاقامة وصالات الطعام وأماكن للراحة والمشى والنقاش والتأمل، وقاعات للمحاضرات فى الفلسفة والعلوم وقراءة أعمال الشعراء والمؤرخين الكلاسيكيين؛ ولم يكن كذلك مجرد مكان لحدائق النباتات والحيوانات اللازمة للبحث والدرس، ولكنه كان قبل ذلك وفوق ذلك المكان الذى لا نظير له فى جمع وتنظيم أكبر مجموعة من مصادر المعلومات فى العالم القديم ونعنى بذلك مكتبة الاسكندرية مما سنراه تفصيلاً فى هذا البحث.

يقول فيرديناند جريجوريوس فى كتابه عن الامبراطور هادريان «لقد نشرت مدرسة الاسكندرية العلم والمعرفة فى العالم المتحضر بأوسع وأطول مما قامت به أية جامعة لاحقة عليها سواء تلك التى وجدت فى باريس أو بولونيا أو بادوا لقد استمر هذا العطاء العلمى فترة أطول كثيرا بعد توقف قوة العلم الاغريقى والمعرفة الموسوعية للاغريق. لقد تجمع هذا كله وأتى أكله فى مكتبة ومتحف الاسكندرية».

السيرابيوم

يعتبر معبد السيرابيوم الذى أقيم على ربوة عالية فى الحى المصرى القديم (راقودة)، والذى بنى أساسًا من الرخام المصرى ومواد أخرى نادرة، يعتبر أهم المبانى الأثرية فى الاسكندرية القديمة على الإطلاق. وقد سيطر على الحاضرة كلها بكل أحيائها. وفى هذا المعبد كما المتحف من قبل كان يمكن للمصريين واليونانيين على السواء أن يتعبدوا فى الصلوات الجماعية معًا ويؤدوا شعائر مشتركة بينهم وتحت قيادة كاهن واحد

مشترك، سواء كان الكاهن تابعا للإله زيوس اليونانى أو الإله أوزيريس المصرى القديم.

هذا السيرابيوم أو معبد سيرابيس كان من الجمال والجلال بحيث قال عنه إميانوس مارسللينوس:

«لا يمكن لوصف أن يوفيه حقه. إنه تزينه ردهات ذات أعمدة بهية وتماثيل تكاد تتنفس وقطع فنية أخرى كثيرة. وهو يلى فى روعته مبنى الكابيتول فى روما الذى تتطلع به إلى الخلود ولا يوجد فى الدنيا كلها ما هو أفخم منه».

ومن المعروف أن المكتبة الصغرى أو المكتبة الإبنة للاسكندرية كانت قد وضعت فى هذا المعبد، على النحو الذى سوف نراه تفصيلا فيما بعد.

لقد كانت الاسكندرية مدينة الجن والملائكة، مدينة العلم والملاهى ويصدق عليها وصف هيرودس حيث قال:

«مصر - الاسكندرية - !! هناك تجد معبد الإلهة آرسينوى. هناك تجد كل شىء من أى مكان: الثراء الفاحش؛ دور العلم؛ القوة؛ الراحة والاسترخاء؛ المجد؛ العروض الفنية؛ الفلاسفة؛ الذهب؛ الشباب؛ الآلهة والالهات الاخوة والأخوات؛ الملك؛ الرجل المتحرر؛ المتحف؛ النبيذ؛ كل الأشياء الجميلة الطيبة التى يتمناها القلب، والنساء أيضا هناك أكثر عددا من النجوم، وهن فى جمال الالهات اللائى ذهبن إلى باريس للتقاضى!!».

وبينما كانت شمس أثينا تغرب وأيام خريفها تقترب وكانت الثقافة اليونانية آخذة فى التجمد وكتابها الذهبى بدأ يغلق، ظهر هناك شاب حمل المشعل المتهاوى وحمله عبر القارات الثلاث، وفى قلب العالم القديم بنى أثرا بقى لمدة ثلاثة قرون حاملا مجد الفكر الهللينى فى التجارة والفن والعلم. وعندما ماتت بلاد اليونان وقام على أنقاضها الرومان بعثت روح الاسكندر فى المنطقة أربعة قرون أخرى.

لقد بقيت الاسكندرية رمزاً لعظمة بانيها؛ واستغرقت ألف سنة من الثورات

المتلاحقة وحملات التخريب حتى خفت صوتها وخنقت فيها روحها الكلاسيكية، وسقطت فى ظلام العصور الوسطى.

المكتبة

كانت المكتبة هى أحد ملحقات المتحف الأساسية وكانت ترتبط بمبانى المتحف عن طريق بهو من أعمدة الرخام الأبيض. وكان مبنى المكتبة نفسه هو الآخر من الحجز الأبيض والرخام الأبيض ومن ثم كان منسجمًا مع سائر مبانى المتحف وجزءاً متكاملا معها بحيث يقدم العلم والحكمة حسب مشورة ونصيحة ديمتريوس الفاليرى إلى بطليموس الأول. وهنا فى هذا المكان كانت المكتبة الأم مكتبة المتحف كما كانت تسمى والتى اعتبرت إحدى عجائب العالم القديم. لقد ضمت المكتبة كما سنرى تفصيلا فيما بعد عشر صالات واسعات، كانت جدرانها مقسمة إلى خزانات مرقمة ومعنونة وفى كل خزانة كانت ترتب الكتب التى تحوى الحكمة والعلم والمعرفة التى تراكمت عبر قرون البشرية العالمة. ولقد خصصت كل صالة من الصالات العشر لأحد فروع المعرفة البشرية حسب التصنيف العشرى الهللينى للمعرفة على نحو ماجاء فى فهرس كاليماخوس المسمى بيناكس. وكان من المألوف أن يرتاد هذه الصالات العلماء والباحثون للقراءة والبحث والاطلاع، على الرغم من أنه كانت هناك قاعات أصغر منفصلة للبحث الفردى أو للمجموعات الصغيرة التى تقوم بأبحاث خاصة ودراسات مشتركة.

لقد أنشئت المكتبة مع نهاية عصر الكتاب اليونانيين العظام (أرسطو، ديموثينز: توفيا سنة ٣٢٢ ق.م)، وحيث قدمت أثينا كل أدوات ومقومات قيام تلك المكتبة: القوة والابتكار والعلم والانتاج الفكرى اللازمة للقيام والاستمرار والحماية. لقد كان قيام المكتبة أهم إنجاز فى الحياة الفكرية للبشر فى حينه.

الحضارة الهللينية

يقصد بالحضارة الهللينية تلك الحضارة التى ازدهرت فى القرون الثلاثة السابقة على ميلاد المسيح مباشرة أى التى أعقبت موت الاسكندر الاكبر. وهى فى أصلها وجوهرها

حضارة يونانية امتزجت بحضارات المناطق التى فتحها الاسكندر وكون منها امبراطوريته. ولابد وأن نقرر بداية أنها كانت حضارة اللغة اليونانية لأن تلك اللغة أصبحت لغة الدواوين الحكومية فى عموم الامبراطورية وكانت لغة التخاطب بين التجار ولغة المعاملات التجارية حيث انتشر التجار اليونانيون فى عموم الامبراطورية وأكثر من هذا انتشرت الجاليات اليونانية فى مشارق الدولة ومغاربها وافتتحوا المدارس فانتشرت معهم لغتهم وخاصة لغة أهل أثينا.

لقد كانت اللغة اليونانية أيضا هى لغة التأليف والنشر ليس فقط من جانب المفكرين والعلماء الاغريق ولكن أيضا من جانب العلماء والمفكرين فى الدول المفتوحة الذين وجدوا أنه من الضرورى لانتشارهم وذيوع صيتهم أن يكتبوا وينشروا باللغة الرسمية لغة السيادة، وعليه فلم يكن الفكر الذى أبدع فى الحقبة الهللينية كله فكراً يونانيا إغريقيا خالصًا، بل ولم يكن هذا الفكر يمثل إلا جزءا صغيرا مما نشر فى تلك القرون.

من جهة أخرى فلابد وأن نتوقف أمام حركة الترجمة والنقل التى قام بها الاسكندر الأكبر وخلفاؤه من لغات الدول المفتوحة إلى اللغة اليونانية فنقل كثيراً من أعمال الفرس وأعمال البابليين والآشوريين والمصريين وغيرهم إلى اللغة اليونانية وكانت حركة نقل وترجمة واسعة النطاق أثرت فى وأثرت مقتنيات مكتبة الاسكندرية إلى حد كبير. إن المرء فى تلك الفترة كى يبدو متحضرا ومثقفًا كان عليه أن يجيد اللغة اليونانية قراءة وكتابة ويستعملها فى حياته اليومية كما نفعل نحن اليوم بالنسبة للغات السيادة: الانجليزية والفرنسية. ولم يقتصر انتشار اللغة اليونانية على المدن فقط بل تسللت إلى القرى وإن كان أهل القرى يتكلمون اليونانية المكسرة غير اليونانية الفصحى السليمة التى يتحدثها أهل المدن. ومما يكشف عن أهمية وخطورة تعلم اللغة اليونانية فى تلك الحقبة قيام اليهود أنفسهم بترجمة العهد القديم من العبرية والآرامية إلى اللغة اليونانية فى الاسكندرية فيما عرف بالترجمة السبعينية.

ولعله من نافلة القول أن نذكر فى هذا السياق أن اليونانيين قد اشتقوا لهم أبجدية

من الأبجدية الفينيقية، وأن هذه الأبجدية هى التى كتب بها الفكر فى الحقبة الهللينية. وكانت مادة الكتابة الأساسية فى تلك الحقبة هى ورق البردى المصرى الذى كان سيد مواد الكتابة ربما حتى القرن الرابع الميلادى، وإن لم يعدم الأمر وجود مواد أخرى كالرق وألواح الخشب وألواح الطين. ومن هذا المنطلق فقد كان الجانب الأعظم من الانتاج الفكرى آنذاك مكتوبا على البردى؛ وكانت مقتنيات مكتبة الاسكندرية هى أساسًا من هذه المادة.

لقد عاش سكان المدن الهللينية فى بلهنية من العيش وبحبوحة من النعيم ورفاهية وترف مقيم. وكان الأثرياء منهم يبنون منازلهم بالحجر الأبيض بدلاً من الطوب ويحيطونها بأروقة ذات أعمدة من الجوانب الأربعة. وكانوا يستخدمون الفسيفساء والرخام بغزارة فى أرضيات المنازل وجدرانها. وفى معظم الحالات كانت البيوت تؤثث بأفخر الأثاث وأنقه. وفى عصور الرفاهية المطلقة كان الماء يدخل إلى المنازل عبر أنابيب خاصة تمتد تحت بلاط الشوارع، كما عرفت البيوت أيضا أنابيب الصرف الصحى.

وانتشر فى العصر الهللينى إنشاء المدن الجديدة بكثرة واضحة وكانت تلك المدن الجديدة منظمة تنظيما جيدًا بحيث تكون الشوارع قائمة الزوايا وتقسم المدينة إلى أحياء كل حى يتألف من مجموعة مربعات أو مستطيلات يضم المستطيل والمربع الواحد عددًا من المنازل. وكانت الشوارع مبلطة تجرى تحتها أنابيب المياه والمجارى. وكانت الشوارع تضاء ليلا بالمصابيح. وكان فى كل مدينة مبانى عامة وحكومية، وأسواق وحدائق وملاعب وحمامات وميادين للسباق ومسارح للتمثيل ومعابد لعبادة الآلهة. ولم يكن ذلك الأمر قاصرًا على المدن الكبيرة فقط بل امتد إلى المدن الصغيرة التى لم يكن سكانها ليزيدوا عن بضعة آلاف نسمة ومن الطريف أنه كان فى كل مدينة صالة اجتماعات فسيحة تسمى قاعة المجتمع تعقد فيها الاجتماعات العامة وكان اليونانيون يطلقون عليها «بازيليكا» وكان مكانها غالبا على جانب من السوق العامة. وقد اسلفت كيف تأنق المهندسون الهللينيون فى تخطيط وتنفيذ مدينة الاسكندرية. ومن المدن

الجميلة أيضا في العصر الهلليني مدينة برجاموم التي أسست هي الأخرى مكتبة كبيرة أرادت أن تنافس بها مدينة الاسكندرية. وقد ازدهر في تلك المدينة فن نحت التماثيل وأعمال الصخور والرخام.

لقد ازدهرت في العصر الهلليني فنون التصوير إلى جانب فن النحت. ولم يكتف فنانو ذلك العصر برسم الصور والمناظر على مواد التصوير بل رسموها أيضا على الجدران وأرضيات الفسيفساء. ومن الطريف أن الشخصيات الكبيرة كان لها رساموها الخصوصيون فهذا هو الاسكندر الاكبر كان له مصور رسام اسمه أبلاس رسمه ذات مرة وهو ممتطيا جواده وقد أحكم الرسام تلوين الجواد إحكاما مدهشًا حتى ظهر الجواد وكأنه حي يركض، ويقال أن حصانا مر بتلك الصورة وتوقف أمامها وركض إليها وحمحم. ولقد انتشرت أعمال تصوير المناظر الطبيعية والأشخاص انتشاراً كبيراً وإن لم يصلنا منها شيئ كثير. ولقد وصلتنا المنحوتات بكثرة سواء على الحجر أو المعدن أو النياشين وقطع النقود.

ولم تنتشر في العصر الهلليني العلوم الطبيعية النظرية وحدها بل طبق العلم على العمل وانتشرت العلوم التطبيقية على نطاق واسع كما سنرى فيما بعد. لقد ارتفع شأن علم الرياضيات وبرز إقليدس من بين رجال أكاديمية الاسكندرية (المتحف) وكان أعظم علماء الرياضيات طرا ومازال اسمه يتردد حتى يومنا هذا وماتزال كتبه في الهندسة يدرس حتى الآن. وظهر في ذلك العصر أيضا أرشميدس ووضع نظريات جديدة في الرياضيات وطبق العلم على العمل على نحو ما سنعالجه فيما بعد. ويبلغ من صعوبة النظريات التي وضعها أنها لم تنتشر في ذلك الزمان إلى أن أعيد احياؤها الآن. ولقد ازدهر علم الفلك أيضا ازدهاراً عظيما وعنى به البطالمة أيما عناية ونحن نعلم أنه ألحق بالمتحف في الاسكندرية مرصد فلكي استخدم في القيام باكتشافات فلكية عظيمة توفر عليها فلكي من ساموزا اسمه أرسترخس وهو الذى قال بأن الشمس ثابتة والأرض وغيرها من الكواكب حولها تدور على العكس مما كان سائداً آنذاك. كما وضع أحد الفلكيين في ذلك العصر جدولاً فلكيا يضم اسماء وأوصاف نحو تسعمائة

نجم من النجوم الثابتة. وفى ذلك الوقت تم قياس محيط الأرض وجاء قريبا جداً من القياس الحقيقى لها الآن.

ازدهر علم النبات وعلم الحيوان وقاد أرسطو وتلاميذه التفكير والتأليف فى هذين العلمين، وقد اكتشفوا بدون آلات أو ميكروسكوبات الكثير من الحقائق العلمية والنظريات الجديدة وأسقطوا معلومات ونظريات قديمة. وكان لديهم فى متحف الاسكندرية معمل للتشريح: تشريح الحيوانات والبشر وكان البطالمة يقدمون لهذا المعمل عدد كبيراً من المحكوم عليهم بالاعدام لاجراء التجارب العلمية عليهم وهم أحياء. وكان من جراء تلك التجارب اكتشاف الجهاز العصبى ودوره فى توصيل رسائل اللذة والألم إلى المخ من سائر اجزاء الجسم واكتشفوا أن المخ هو مركز ذلك الجهاز العصبى. ونحن نعلم أن الاسكندرية كانت فى تلك الحقبة أهم مركز للدراسات والبحوث الطبية فى العالم القديم يقصده طلاب الطب من جميع أنحاء ذلك العالم.

وعندما تذكر اليونان والعالم الهللينى فلابد وأن تذكر الفلسفة والأخلاق والمنطق حيث هى علوم يونانية هللينية صرفة. ولقد انتشرت التربية والتعليم فى بادىء الأمر على شكل مدارس خاصة فى أول الأمر ولكنها أصبحت حكومية تتولى الدولة أمرها وتتحمل تكاليفها. وكان الطالب الذى يجتاز المرحلة الابتدائية يواصل تعليمه العالى فى اللغة والفلسفة والرياضيات. ورغم أن الفلسفة كانت تتضمن دراسة كل فروع المعرفة البشرية تقريباً إلا أنه كان هناك نوع من التخصص فى الدراسة على حسب المهنة التى يرغب الشخص فى امتهانها بعد الانتهاء من الدرس، وعلى سبيل المثال: الطب والهندسة والفلك والكيمياء.. ويمكننا القول مطمئنين بأنه كانت هناك فى ذلك العصر مدرستان أو جامعتان كبريان لتدريس العلوم وتدارسها. أولى تلك المدارس مدرسة الاسكندرية التى تجمع منها رهط عظيم من العلماء يدرسون فى موضوعات مختلفة كالفلك والطب والرياضيات وعلم النبات وعلم الحيوان وعلوم اللغة والآداب والجغرافيا وغيرها. وكانت مدرسة الاسكندرية تميل إلى التجريب والتطبيق

أكثر من ميلهم نحو التجريد والفلسفة ولذلك لم تحفل الاسكندرية كثيرا بالعلوم الفلسفية النظرية على نحو ما حفلت به أثينا كما سنرى بعد قليل والمدرسة الثانية أو الجامعة الثانية فى الحقبة الهللينية كانت مدرسة أثينا وكانت هذه المدرسة تجنح نحو العلوم الفلسفية أكثر، وكان طلاب الفلسفة يأتون إلى أثينا من كل حدب وصوب وكان على رأس هذه المدرسة أتباع أفلاطون وطلابه (٤٢٨ ـ ٣٤٧ ق.م) يدرسون كتب أفلاطون ونظرياته فى المكان الذى اختاره وهو الأكاديمية. وكان أرسطو تلميذ أفلاطون ومعلم الاسكندر قد عاد من مقدونيا إلى أثينا بعد أن أتم تعليم الاسكندر. وقد انشأ ارسطو مدرسة خاصة به لاختلافه علميًا مع أستاذه أفلاطون. وقد عرفت مدرسة أرسطو باسم الليسيوم نسبة إلى المكان والمشائين نسبة إلى طريقة التدريس أثناء المشى أو بمعنى آخر المشى اثناء التدريس. وقد جمعت أعمال أرسطو فى موسوعة ضخمة اعتبرت المرجع الأساسى في العلوم طوال العصور الوسطى واعتبر أرسطو أعظم مفكر فى العالم القديم والوسيط على الاطلاق ولما مات أرسطو تفككت مدرسته.

ومن الطبيعى أن تأخذ فلسفة أفلاطون وقتها ثم يتحول عنها الناس، وكذلك الحال بالنسبة لفلسفة أرسطو، وكان من الطبيعى أن تنشأ مدارس فلسفية أخرى من أثينا؛ مدارس تواكب العصر الجديد وتحاول أن تقدم للناس فلسفة تساعدهم على الحياة العملية وطيب العيش بدلاً من الفلسفة التى تطلب منهم المجاهدة والمجالدة لتحقيق الكمال. ومن هذه الحال والأوضاع خرجت مدرستان جديدتان للفلسفة هما: مدرسة الفلسفة الرواقية ومدرسة الفلسفة الأبيقورية. ومؤسس الفلسفة الرواقية هو زينون القبرصى المولد الشرقى السامى الأصل وسميت فلسفته بالرواقية لأنه كان يعلم تلاميذه في الرواق القديم فى المدينة فنسبت المدرسة والفلسفة إلى المكان الذى تلقى فيه المحاضرات. وملخص هذه الفلسفة الجديدة أن الحياة تقوم على شيئين فقط أحدهما صالح وهو الفضيلة والاخر فاسد وهو الرذيلة وأنه لكى تعيش النفس فى سلام وطمأنينة فلابد أن تحيا حياة الفضيلة وفى هذه الحالة سوف يستوى لديها اللذة والألم فإذا حدث ما ينغص الحياة لم تشعر النفس الفاضلة بذلك التنغيص. وقد انتشرت هذه

الفلسفة بين الناس انتشاراً كبيراً لأنها تحقق لهم السلام الداخلى والطمأنينة. أما المدرسة الثانية وهى الأبيقورية فإنها تنسب إلى أبيقورس الذى كان يحاضر طلابه فى حديقته بأثينا. وتقوم الفلسفة الأبيقورية على أن الخير الأعظم للانسان هو اللذة سواء كانت لذة فكرية معنوية أو لذة حسية مادية بشرط أن تكون هذه اللذة «حلالاً» أى تدخل فى دائرة الفضائل ولا تقترب من دائرة الرذائل. ومن هذا المنطلق انغمس الابيقوريون فى تحقيق الملذات وخاصة الاكل ولذلك وجدت هذه الفلسفة رواجا عظيما لدى الناس فأقبلوا عليها إقبالا شديداً، بيد أنهم مع مرور الوقت أنحرفوا عن مبادىء الفضيلة وانخرطوا فى لذات الرذيلة غير المشروعة حتى غدا شعار هذه الفلسفة «لنأكل ونشرب ونمرح لأننا غدا سوف نموت».

لقد كان من بين حسنات الفلسفة الرواقية والأبيقورية أن اتخذها المثقفون والمتحضرون دينا لهم أحلوه محل الآلهة المتعددة، وبالتالى انصرفوا عنها وفقدت تلك الآلهة ماكان لها من منزلة فى نفوس الناس بل وأكثر من هذا وأصبحت الآلهة فى نظر هؤلاء الناس مجرد كائنات بشرية يمجدونها فقط. وكتب أهميروس الذى عاش بعد عصر الاسكندر قصة خيالية تؤكد على أن هذه الآلهة التى اخترعها اليونانيون كانت فى الأصل ملوكا من ذوى الحول والطول والدهاء بذلوا جهداً كبيراً فى استعباد الناس. وهذه القصة حقيقية مائة فى المائة ولنا فى الملوك والأباطرة اليونانيين أنفسهم الدليل على ذلك حتى الاسكندر نفسه سعى هذا السعى.

لقد جاد العصر الهللينى علينا بأربعة مدارس فكرية: الأكاديمية (امتداد أفلاطون فى الزمان والمكان والفلسفة)؛ الليسيوم (مدرسة أرسطو التى كانت أعظم المدارس أثناء حياته وإن خفتت بعد وفاته). الرواق (رواق زينون الذى كان يدرس فيه فلسفته)؛ حديقة أبيقورس (المكان الذى كان يلقى فيه أبيقور محاضراته على تلاميذه). وفى ظل هذا كله قامت مدرسة الاسكندرية على النحو الذى سنراه تفصيلاً.

لقد ازدهر علم الجغرافيا فى العصر الهللينى إلى حد كبير بفضل تقدم علم الفلك من جهة وتقدم الرحلات والأسفار من جهة ثانية فقد ساعد علم الفلك على معرفة

حجم الأرض وحركات الشمس صيفا وشتاءً. وساعدت الأسفار والرحلات على معرفة مساحات المناطق المسكونة وقياس علو الجبال. ويذكر أن التجار اليونانيين خاضوا عباب البحار والمحيطات بسفنهم التجارية وداروا حول افريقيا وارتادوا جزيرة سيلان (سريلانكا الآن) والساحل الشرقى للهند. كما قام الفينيقيون بعبور بوغاز جبل طارق. ويذكر أن الجغرافى والفلكى بيثياس جهز سفينة على حسابه الشخصى واخترق بها جبل طارق ودار حول الجزر البريطانية وعبر إلى بحر الشمال وجزيرة ثول (أيسلندا الآن).

ويرز فى العصر الهللينى الجغرافى الأشهر إراتوثينز الذى وضع كتابا ضخمًا في الجغرافيا رسم فيه خريطة للعالم القديم المعروف له بقاراته الثلاث: أوروبا - آسيا - إفريقيا. ورسم على هذه الخريطة خطوط الطول والعرض ووصف حوض البحر الأبيض المتوسط وصفا دقيقًا وجمع فى هذا الكتاب مادة علمية غزيرة لم يسبقه إليها غيره.

لم يكتف علماء العصر الهللينى بالنظر والبصر فقط بل انطلقوا من ذلك كله إلى التجريب والتطبيق واستخدام العلم فى العمل، فجاد العصر باختراعات عديدة، بعضها كان عامًا من النوع الذى يحدث الانقلاب فى مجال العلم والعمل، وبعضها محدود طريف. من بين الاختراعات العامة آلات إطفاء الحرائق، الآلات الحربية التى تقذف اللهب بضغط الهواء فقط، المسارح المتحركة تلقائيًا، الساعات الشمسية والمائية، عصارات زيت الزيتون. ومن الاختراعات المحدودة مغاسل أوتوماتيكية تقدم الماء والصابون بقدر اللزوم، طرق فتح وغلق الأبواب أوتوماتيكيا، صنابير الماء.

وتذكر المصادر أن أعظم رحالات العلوم التطبيقية فى ذلك العصر هو أرشميدس الشهير من سيراقوسة، وهو صاحب آلات رفع الأثقال التى تقوم على مجموعة من البكرات تساعد على تعظيم قوة الدفع والرفع إلى درجة خيالية حتى أنه يمكن دفع سفينة ضخمة مملوءة بالبضائع فى البحر بحركة بسيطة من تلك البكرات. ولقد اخترع الرجل أيضا آلات حربية جبارة لم تعرف قبل زمانه وغير ذلك من الاختراعات العملية

التى دفعت الحضارة الهللينية قدما إلى الأمام. لقد فاخر الرجل إلى حد الشطط باختراعاته هذه حتى قال «أعطونى مكانا أقف فيه أزحزح لكم الأرض». لقد كان أرشميدس مدرسة فى حد ذاتها وكانت هناك مراسلات وصلات علمية مع زملائه فى مدرسة الاسكندرية، وقد ألفوا فيما بينهم جمعية علمية داخل متحف الاسكندرية ودفعوا البحث العلمى واكتشاف القوانين العلمية خطوات كثيرة إلى الأمام.

ولعله من نافلة القول أن هذه الحركة العلمية الثقافية الفكرية الحضارية فى العصر الهللينى واكبها وساعد عليها ازدهار حركة التأليف والترجمة والنشر وانشاء المكتبات. لقد جاءت روافد حركة النشر من مصادر ثلاثة هى:

١ ـ تحقيق التراث القديم وتدوينه، ذلك أن الشعب اليونانى كان فى بادىء الأمر يجنح نحو النقل الشفوى للمعلومات وظل ردحا طويلا من الزمن على ذلك الحال ومن ثم فإنه فى العصر الهللينى وجد تراث ضخم انتقل من جيل إلى جيل ومن مكان إلى مكان عن طريق التواتر وبالتالى كان لابد من تسجيله وتدوينه ونشره بين الناس، وما وصل إلى هذا العصر مكتوبا كان لابد من الوقوف أمامه وتحقيقه وإمعان النظر فيه.

٢ ـ الترجمة، فكما ألمحت من قبل حرص الاسكندر الأكبر على نقل تراث الشعوب المفتوحة إلى اللغة اليونانية وكانت حركة الترجمة قد اشتدت بعد وفاته وعظمت إلى حد كبير سواء من الفارسية أو المصرية القديمة أو البابلية أو الأشورية أو الآرامية والعبرية ولو نظرنا إلى رصيد الفكر البابلى والآشورى والمصرى القديم لوجدناه من الضخامة بحيث يمد حركة الترجمة إلى اليونانية أرداحا طويلة من الزمن.

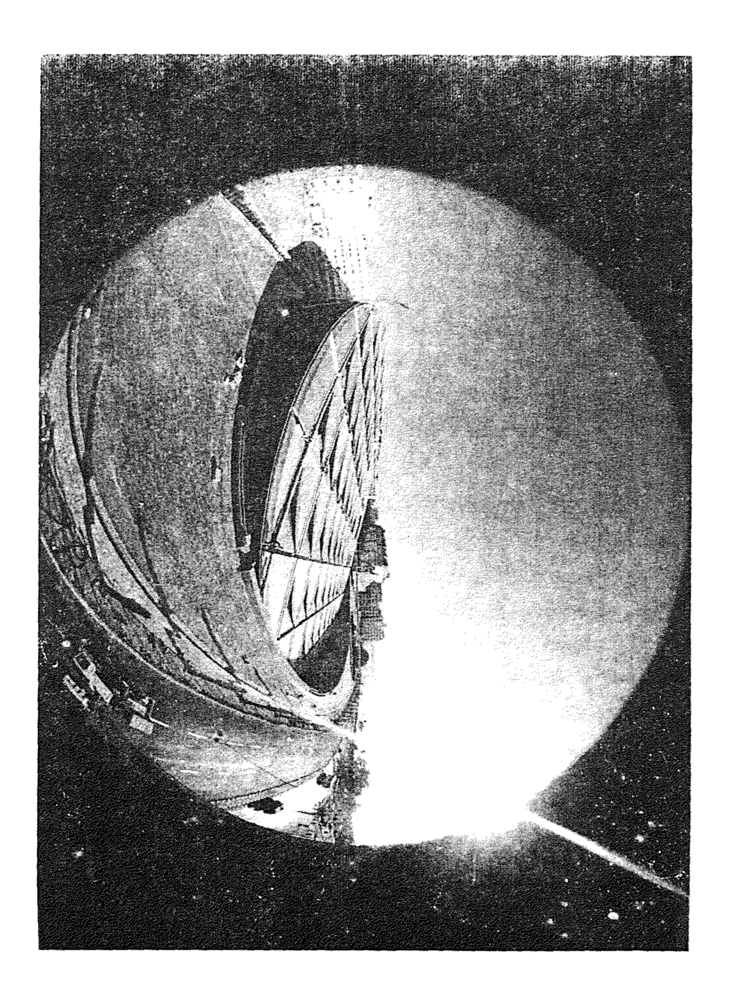
٣ ـ التأليف الجديد إن المتأمل فى الثقافة الهللينية سوف يجدها إلى حد كبير نتاج ثقافات وفكر العديد من الشعوب المفتوحة يضاف إليها الثقافة اليونانية الأصلية المتأثرة بداية بالثقافة المصرية والأشورية وكما أشرت من قبل قام المؤلفون فى

عموم الامبراطورية الجديدة بوضع المؤلفات فى كل المجالات والموضوعات باللغة اليونانية التى أصبحت لغة العلم والأدب.

هذه الروافد الثلاثة أمدت حركة نشر الكتب فى الحقبة الهللينية بوقود لا ينفد يدلنا على ذلك العدد الكبير من المجلدات التى تجمعت لدى مكتبة الاسكندرية على النحو الذى سنراه تفصيلا فيما بعد، والمكتبات الأخرى التى انتشرت فى العصر الهلليني.

لقد انتشرت المكتبات الخاصة فى تلك الحقبة انتشاراً كبيراً بسبب انتشار التعليم من جهة وانتشار البحث العلمى من جهة ثانية. يضاف إلى ذلك المكتبات الرسمية التى بدأت منذ زمن الاسكندر واستمر مدها بعد وفاته وعظمت حركتها فى الحقبة الهللينية. ويذكر أن أول مكتبة أسستها حكومة يونانية كانت مكتبة «هرقلية» على ساحل البحر الأسود نحو سنة ٣٥٠ ق.م وتوالت المكتبات الرسمية بعد ذلك فى أماكن مختلفة وكانت الحكومة هى التى تشرف عليها وتقوم بنفقتها. وكانت مكتبة الاسكندرية تتويجًا رائعًا لحركة إنشاء المكتبات فى الحقبة الهللينية.

يقول الدكتور مصطفى العبادى أنه بعد وفاة الاسكندر وانقسام الامبراطورية بين قادته إلى ممالك مستقلة، نشأت بينهم منافسة شديدة حيث أراد كل منهم أن تكون مملكته هى الأقوى والأعظم والأكثر تحضرا فى مضمار العلم والثقافة ومن أهم من برز فى هذا الشأن البطالمة فى مصر والسلوقيون فى سوريا والأتاليون فى برجاموم، حيث حاول هؤلاء جميعا إحراز قصب السبق فى العلم والثقافة وإنشاء المكتبات على الأقل فى عواصم ممالكهم وهى على التوالى الاسكندرية وأنطاكية وبرجاموم. ومع التطور وبالتدريج وجدنا المكتبات العامة تتخذ شكل الظاهرة فى معظم المدن الهللينية كبيرها وصغيرها حتى إن مؤرخًا مثل بوليبيوس فى القرن الثانى قبل الميلاد يعتبر وجودها أمراً مفروغًا منه على النحو الذى نستشفه من عبارته الساخرة «إنه من اليسير على أى شخص أن يكتب بالنقل من الكتب إذا ما أقام فى مدينة مزودة بوفرة من الوثائق ومكتبة».



الفصل الثانى
تأسيس وقيام مكتبة الاسكندرية القديمة

كانت مكتبة الاسكندرية القديمة لغزًا فى قيامها وتأسيسها ولغزًا فى نهايتها ومصيرها. نحن لا نعرف على وجه اليقين من أسس المكتبة كما لا نعرف على وجه اليقين الأسباب التى دعت إلى إنشائها، كذلك لا نعرف حجمها ولا نوعيتها بل وجنسيتها. وكل مالدينا من معلومات عبارة عن نتف مبعثرة هنا وهناك وآراء وأقوال متضاربة فى معظم الأحيان ونحن هنا نحاول جهد الطاقة أن نرسم لوحة متكاملة قريبة مما نعتقد أنه الحقيقة من تلك النتف المبعثرة، ومن المؤكد أن هناك دائمًا بذرة الحقيقة الكامنة فى بطن كل أسطورة.

بعد وفاة الاسكندر فى يونية ٣٢٣ ق.م كان هناك صراع على السلطة بين قادته وخلصائه ومناورات ومؤامرات حول من يخلفه. ومن الناحية الرسمية البحتة نصب أخوه المختل عقليا فيليب آرهيدايوس ملكا على الامبراطورية خلفًا للإسكندر ولكن السلطة الحقيقية كانت فى يد القادة المقدونيين وغدا بيرديكاس الوصى الأعلى على الامبراطورية. وكانت هناك صفقة من نوع ما بين بيرديكاس وبطليموس وبمقتضى هذه الصفقة عضد بطليموس بيرديكاس فى الوصاية على الامبراطورية بينما يمنح بطليموس حكم مصر. وقد قام أحد القادة المقدونيين باعداد ترتيبات الجنازة على نحو ما رأيناه سابقا وكان هذا القائد يعرف باسم آرهيدايوس أيضا - وهو غير شقيق الاسكندر - وفى خلال خمسة شهور فقط ارتحل بطليموس إلى مصر لتولى السلطة ويصبح السوتراب.

كان بطليموس سليل عائلة نبيلة فقد كان أبوه لاجوس من نبلاء الريف فى مقدونيا وأمه تمت للعائلة الملكية بنسب. وكانت هناك شائعة تقول بأنه ابن فيليب الكبير ومن ثم فإنه يكون أخ غير شقيق للاسكندر. وفى صباه تربى داخل البلاط الملكى مع الاسكندر وكان دائما صديقا حميمًا له وقد صحبه فى حملته فى آسيا الوسطى فى أعماق الهند بل وكان واحدا من حراسه السبعة. وكان بطليموس قائدا وجنديا فذا.

وكان الرجل مسيطراً على نفسه بحيث تجنب الكثير من الاغراءات التى وقع فيها كثير من خلصاء الاسكندر ويقول عنه الثقاة أنه كان بعيد النظر ثاقب البصيرة يجيد لعبة السياسة ويخرج منها منتصراً عادة. وكان إذا دخل صفقة مع رجل أو امرأة كسبها وربحها، كان يعرف بالضبط ماذا يريد ويصل إلى غايته بهدوء وسرعة وسرعان ما اكتسب الرجل حنكة سياسية بارعة ومن ثم أصبح بلا منازع أنجح خلفاء الاسكندر وكان حيثما تفشل السياسة يستخدم القوة المسلحة، ويستخدم القوة المسلحة فقط عندما لا يجد مفرا من ذلك. ولقد كانت لديه الجسارة والجرأة فى الاستيلاء على مصر واتخاذ القرارات المناسبة التى تتطلبها المخاطر الجسيمة.

لقد ظهر بطليموس فى مصر فى الوقت الذى وصلت فيه جنازة الاسكندر إلى جنوبى سوريا بقيادة آرهيدايوس بعد سفر طويل من بابل. وكما ألمحت سابقا قابل بطليموس موكب الجنازة بحفاوة بالغة ومراسيم شديدة القوة والروعة وأخذ الجثمان إلى ممفيس (منف) مقر حكم الفراعنة فى مصر القديمة حيث أقيمت الصلوات والمراسيم الدينية للراحل العظيم. وكان بطليموس يعلم أنه بهذا الاجراء واعتزامه إبقاء الجثمان فى مصر إنما يعتدى على سلطات بيرديكاس الوصى على الامبراطورية، ولكنه اتخذ هذه الخطوة لاظهار قوته الشخصية. ولقد أبقى الجثمان فى ممفيس بعض الوقت حتى أتم بناء ضريح العظماء (سوما) الذى يدفن فيه جثمان الاسكندر وسائر ملوك الأسرة البطلمية على النحو الذى ألمحت إليه سابقًا، تلك الأسرة التى حكمت مصر ثلاثة قرون بعد ذلك.

ولما أصبح العداء هكذا ظاهراً بين بطليموس وبيرديكاس، قبض بطليموس على كليومينيس مهندس مدينة الاسكندرية وجابى الضرائب سابق الذكر وكان صديقًا للوصى على الامبراطورية بيرديكاس بل وجاسوسًا له على بطليموس وحاكمه وحكم عليه بالاعدام وصادر الأموال التى نهبها من الشعب وكانت تقدر بمبلغ ثمانية آلاف تالنت (مرتب العالم فى سنة كان ١٢ تالنتًا انذاك) فيما يذكر كل من أرسطو، ديموثينز، آريان.

بعد عام واحد من تولى بطليموس السلطة فى مصر قام بالاستيلاء على كيرين وهى جمهورية يونانية مستقلة ظلت بعيدا عن الحكومة المركزية لمدة قرن من الزمان وقد برز فيها علماء وباحثون وفنانون على درجة عالية من الشهرة ونظرا لوقوعها جهة الغرب فإنها تعتبر حماية لحدود مصر من جهة البحر. وفى ربيع ٣٢١ ق.م جاء بيرديكاس على رأس جيش كبير لتدمير بطليموس ومعاقبته ولم يكن قد مضى عليه عام فى السلطة فى مصر (نهاية ٣٢٣ ق.م) ولكن بيرديكاس فشل فى مهمته واغتيل فى معسكره، ورغم أنه عرض على بطليموس أن يحتل منصب الوصى على الامبراطورية محل بيرديكاس إلا أنه رفض وفضل البقاء حاكما على مصر وحدها. وقد أثبتت الأيام حنكة قراره فقد تناحر الحكام الآخرون طيلة أربعين عامًا يغيرون على بعضهم البعض بينما بقى بطليموس آمنا مطمئنا فى مصر لم يقترب منها أيهم. وفى خلال عامين فقط من استيلائه على السلطة فى مصر وعلى جثمان الاسكندر وإبقائه فيها كان قد تم القضاء على بيرديكاس وعميله فى مصر كليومينيس.

وفى العشرين عامًا التى تلت كانت هناك مغامرات عسكرية محدودة، برز من بينها اثنتان تستحقان الذكر: حروبه فى جنوبى سوريا وفينيقيا وانتصاره هناك واستيلائه على بيت المقدس (أورشليم ٣١٩ ـ ٣١٨ ق.م) كما احتل قبرص (٣٢٠ أو ٣١٥ ق.م) وبالتالى أصبحت هناك حماية مؤكدة لجزر بحر إيجه.

ولابد من التوقف هنا أيضًا أمام موقعة إبسوس ٣٠٥ ـ ٣٠٤ ق.م حيث قام أنتيجونيوس العجوز بحشد قوة ضاربة قوامها قوات مشاة بطول ثمانين ألف قدم، ثمانمائة حصان، ثلاثة وثمانون فيلا هنديا، وقوات بحرية ١٥٠ سفينة حربية ومائة سفينة ناقلة جنود وعتاد. تلك الموقعة اشترك فيهَا ضد انتيجونيوس كل من ليسيماخوس وسلوقس وكاساندر حيث كسبوا المعركة وتحقق لهم النصر فى صيف ٣٠١ ق.م. ورغم أن بطليموس لم يشترك فى المعركة ولم يظهر فيها إلا أنه طالب بنصيبه من الغنائم وحصل على جنوبى سوريا للمرة الرابعة. وبعد هذه الموقعة كان فى حوزه بطليموس اضافة إلى مصر جنوبى سوريا وفلسطين وقبرص ولم يدخل بعدها فى

أية حروب واستطاع بطليموس بعد ذلك أن يرسى دعائم الامبراطورية البطلمية واتخذ من الاسكندرية عاصمة لها وأخذ فى تطوير الاسكندرية ووضع دعائمها الاساسية كعاصمة ليس لمصر وحدها ولكن كعاصمة للعالم كله ويتم ما أنجزه كليومينيس بين العشرين من يناير ٣٣١ ق.م وحتى نهاية ٣٢٣ ق.م فى ظل الاسكندر الأكبر، وكان ما أنجز كثير وكثير جدا.

ومنذ نهاية ٣٢٣ ق.م وحتى ٣٠١ ق.م أى طيلة واحد وعشرين عامًا رغم أن بطليموس كان مشغولاً فى الأمور العسكرية وارساء قواعد الامبراطورية، إلا أنه على الجانب الآخر أعطى وقتا كافيا لتطوير مدينة الاسكندرية وتنفيذ بعض المشروعات الحيوية فيها بما يليق بها كحاضرة ملكه. وقد لمسنا كيف دعته حنكته السياسية أن يبقى جثمان الاسكندر فى مصر وأن يبنى لهذا الجثمان الضريح الفخم الضخم كى يدفن فيه ويضع فيه أيضا كل متعلقات الاسكندر. لقد نجح بطليموس أيضا فى خلق دين جديد مزيج من ديانات اليونانيين والمصريين وجمع بين الزعيم الدينى اليونانى تيموثيتز والزعيم الدينى المصرى مانيتو، وهما معًا ابتدعا الديانة الجديدة التى أشرنا إليها عبادة سيرابيس التى أرضت الطرفين وجمعتهما فى شعائر جماعية واحدة. وتوفر بطليموس الأول على انشاء معبد السيرابيوم ثانى أفخم وأضخم مبنى فى العالم القديم.

ونأتى بعد ذلك إلى الفضل الأكبر الذى قام به الجندى الفذ والسياسى المحنك بانى الامبراطورية، منشىء الديانة الجديدة ونعنى بهذا الفضل المتحف والمكتبة سواء كان هو صاحب الفكرة أو بايحاء من ديمتريوس الفاليرى.

هناك جدل كبير حول منشىء المتحف والمكتبة فثم من يقول بأنه بطليموس الأول (سوتر) وثم من يقول بل ابنه بطليموس الثانى (فيلادلفوس)، وسواء كان هذا أو ذاك فإن المصادر تجمع على أن الفكرة نبعت من ديمتريوس الفاليرى، وحيث لا يوجد إلا مصدر واحد يقول بأن فكرة المتحف والمكتبة جاءت من طرف شخص آخر أوحى بها إلى بطليموس.

لقد أورد ألكسندر بارسونز عددًا كبيرًا من النصوص والنقولات من مؤلفين مختلفين

كلهم أكدوا على أن صاحب الفكرة هو ديمتريوس الفاليرى ومن ثم فإن هذا الشخص يكون هو صاحب المشروع وهو الذى أوعز بانشاء المتحف والمكتبة ولأن ديمتريوس الفاليرى هذا عاصر الملكين: بطليموس الأول (سوتر) وبطليموس الثانى (فيلادلفوس) فإن السؤال إذن من من الملكين يكون المنفذ للمشروع؟ هل هو بطليموس الأول؟ أم ابنه بطليموس الثانى؟ وللإجابة على هذا السؤال فإن الأمر يحتاج إلى التوقف برهة أمام حياة ديمتريوس الفاليرى وعلاقته بالملكين ومقارنة هذه الحياة بالنصوص التى تحدثت عن تاريخ انشاء المتحف والمكتبة وعن ظروف إنشائهما. وربما كان أحسن من كتب فى هذه الجزئية هو الدكتور جورج هنريتش كليبل عن متحف الاسكندرية والذى نشره فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ١٨٣٨ وقد أكد فى بحثه بدون تردد أن المتحف والمكتبة أنشئا مابين سنة ٣٠٠ و ٢٩٠ ق.م ومن ثم يكون الانجاز العظيم حدث فى عهد بطليموس الأول. ويحلل الدكتور مصطفى العبادى شخصية وسيرة ديمتريوس الفاليرى لكى يصل إلى نفس النتيجة. ومن المعروف أن يمتريوس الفاليرى (ديمتريوس من فاليرون) كان تلميذا من تلاميذ ارسطو وعضوا بارزا فى مدرسة المشائين التى أسسها أرسطو وأصبح حاكما مستبداً لأثينا إلى أن طرد سنة ٣٠٧ ق.م ففر إلى مدينة طيبة فى وسط اليونان ومنها ارتحل هاربا متخفيا إلى مصر حيث لجأ إلى بلاط بطليموس سوتر. وكان الرجل إلى جانب عمله السياسى مفكرا ومثقفا وعالما فى مجالات مختلفة ومن ثم هيئت له كل الظروف ليكون مستشاراً للملك.

ويقول الدكتور جورج كليبل فى هذا الصدد أن بطليموس الأول كان لابد وأن يرحب به ويشجعه على الاقامة فى بلاطه لأنه وجد فيه الشخص المناسب الذى يساعده فى جعل الاسكندرية أثينا الثانية فى عالم الفن والعلم والأدب وهو ما سعى إليه كما رأينا من قبل. صحيح ليس هناك من بين الكتاب المعاصرين لتلك الفترة ما يؤكد ذلك ولكن أيضا ليس هناك ما ينفى أو يعكر صفو تلك الحقيقة. لقد بدأت الفكرة بأن أوعز ديمتريوس إلى الملك بأن يستقطب من أثينا العلماء والمفكرين والفلاسفة أقرانه على الأقل من مدرسة الليسيوم وبالتالى عندما اقتنع الملك بالفكرة كان لابد من انشاء أكاديمية لهم على غرار الليسيوم أو أكاديمية أفلاطون، تجمعهم وتدبر لهم فيها

أسباب العيش والعمل ومن هذا المدخل فكر بطليموس فى إنشاء المتحف الذى هو أكاديمية على غرار مدارس أثينا.

ولعله من نافلة القول أن نذكر هنا بأن الاقتناع السريع من جانب بطليموس بانشاء الأكاديمية يرجع إلى أنه هو نفسه كان تلميذا لأرسطو مع الاسكندر فى مدينة بيلا عاصمة مقدونيا آنذاك، ومن هنا أيضا كان احترامه لمدرسة المشائين وقد حاول استقطاب رئيس المدرسة بعد وفاة أرسطو وهو المدعو ثيوفراستس الذى رفض الحضور إلى الاسكندرية فدعا تلميذه الأشهر سترابون.

ولقد ظل ديمتريوس الفاليرى فى بلاط بطليموس الأول معززا مكرما إلى أن توفى بطليموس الأول سنة ٢٨٣ ق.م؛ فتبدل الحال حيث غضب عليه بطليموس الثانى (فيلادلفوس) لمواقف سابقة منه فأبعده عن البلاط وعن الاسكندرية في أبوصير حتى توفى ودفن هناك. ومن هنا لا يمكن أن يكون بطليموس الثانى هو الذى أنشأ المكتبة بداية بايعاز من ديمتريوس الفاليرى بل ربما يكون قد توسع فيها بعد وفاة أبيه وتوليه هو السلطة من بعده. وهذه القصة نفسها نصادفها فى حالة (بيت الحكمة فى بغداد) المكتبة العظيمة التى أنشأها هارون الرشيد وتوسع فيها ونماها ابنه المأمون

وطالما أننا قد أثبتنا الآن ان بطليموس الأول هو الذى أنشأ المتحف والمكتبة بناء على نصيحة من ديمتريوس الفاليرى فإن السؤال الذى يفرض نفسه بعد ذلك هو متى تم الانشاء مع الأخذ فى الاعتبار أن إنشاء المكتبة قد تم قبل انشاء المتحف فيما يقول الدكتور جورج كلييل، وأن المتحف نفسه اكتمل ما بين ٢٩٠ ـ ٢٨٤ ق.م قبيل وفاته مباشرة؛ وبالتالى فإن المكتبة تكون قد أسست مابين ٣٠٠ ـ ٢٩٠ ق.م.

والمشكلة التى تواجهنا حقيقة أن المصادر المختلفة لا تربط بين المتحف وبين المكتبة إلا فيما ندر فكثير من المصادر تتحدث عن المتحف وحده ومصادر أخرى تتحدث عن المكتبة وحدها مما يشير إلى صدق ما ذهب إليه الدكتور كلييل من أن المكتبة قد نشأت قبل المتحف وأنها لم تكن كما ذهب البعض جزءا منه بل وجدت الصلة فيما بعد عندما احتاج الباحثون إلى استخدام مصادر المكتبة وأدواتها ونحن نجد أن تيمون

وهيروداس يشيران فى أشعارهما إلى المتحف فقط. وفى القرن الثانى قبل الميلاد نجد أريتياس يتحدث عن المكتبة وحدها وهو أقدم من وصلتنا كتاباته عن المكتبة. كذلك فإن استرابون عندما وصف الاسكندرية لم يتحدث عن المكتبة بل تحدث فقط عن المتحف. وفى العصر الرومانى نجد الكتاب يتحدثون عن المؤسستين معًا على نحو ما فعل أثينايوس وايريانوس فى القرن الثانى الميلادى.

لا ينبغى أن ننزعج من مصطلح المتحف (الموسيون) وننظر إليه على أنه مكان لعرض التحف ولكنه فى حقيقة الأمر كان أكاديمية أو بمعنى عصرى مركز بحوث واسع النطاق يضم كبار الباحثين والعلماء المنغمسين فى القيام بدراساتهم وبحوثهم وتجاربهم العلمية وإلى جانبهم شباب الباحثين ممن يتدربون على منهج البحث وأساليب عمل الدراسات والبحوث تحت اشراف شيوخ البحث وأساطينه وهكذا كان يتم التواصل العلمى بينهم. ولم يكن المتحف مدرسة يلقى فيها العلم بطريقة منظمة أو منتظمة وإن لم يعدم الأمر وجود ما يمكن أن نطلق عليه المحاضرات العامة أو المناظرات العلمية التى كان الملك يحضر جانبا منها. ولذلك نعتقد أن المتحف كان قاصرا على صفوة العلماء وأنه لم يلتحق به إلا من يسمح له الملك بالانخراط فى سلك أعضاء المتحف.

ونظرًا لأننا لم يصلنا وصف تفصيلى لمبنى المتحف أو أقسامه وكل ما وصلنا هو وصف عام قدمه لنا استرابون الذى شاهده عند زيارته للاسكندرية ووصفه من خلال وصفه لها يقول استرابون أن هذا المتحف أو الموسيون يقع فى حى البروكيوم أى الحى الملكى وله ممشى طويل محاط بأعمدة مزدوجة وينتهى برواق معقود. وفيه بيوتات من بينها قاعة كبيرة للطعام يأكل فيه أعضاء الموسيون، وهم يشكلون جماعة واحدة لهم ملكية مشتركة معهم كاهن يعينه الملك (ثم الامبراطور فى العصر الرومانى) ويكون هذا الكاهن رئيس المتحف - يقول الدكتور مصطفى العبادى ربما يكون المتحف قد بنى على نفس طريقة أكاديمية أفلاطون وليسيوم أرسطو فى أثينا وأن ديمتريوس الفاليرى الذى أشرف على تخطيط وبناء المتحف كان متأثرا إلى حد كبير بأكاديميات أثينا

وخاصة الليسيوم الذى كان ينتمى إليه.

وقد رأينا أن الملك بطليموس الأول حرص كل الحرص على استقطاب العناصر العلمية المتميزة للانخراط فى سلك علماء وباحثى المتحف وفى نفس الوقت تربية أبنائه وتأديبهم. وتذكر المصادر أنه من بين من استقدمهم عالم الطبيعة استراتون والأديبان اللغويان فيليتاس من قوص وزينودوتس من أفيسوس والرياضى الأشهر اقليدس.

كان المتحف يمول كلية من قبل الدولة أى من ميزانيتها العامة وكان العلماء والباحثون فى المتحف يتقاضون إلى جانب الاقامة الكاملة - سكن وطعام وانتقالات - مرتبات شهرية كانت تتراوح ما بين تالنت واحد وخمسة تالنتات شهريًا على حسب الدرجة والمقام. ونحن وإن لم تصلنا جداول المرتبات فإننا نستطيع من السياق تقديرها واستنتاجها على النحو السابق، ذلك أن سوسيبيوس الأديب والناقد اشتكى لبطليموس الثانى فيلادلفيوس من عدم حصوله على مرتبه الملكى، كما أن بناريتوس العالم المغمور كان يتقاضى اثنى عشر تالنتًا؛ وأن عالم الطبيعة المشار إليه استراتون الذى كان يعلم ابن بطليموس سوتر قد تقاضى مبلغ ثمانين تالنتًا نظير هذا العمل كله ولا نعرف المدة التى انقضت فى هذا العمل. من ناحية أخرى أعفى العلماء والباحثون فى المتحف من الضرائب وهو امتياز كان يحصل على المدرسون فى عهد بطليموس الثانى.

ويبدو أن المتحف رغم اشتغاله الأساسى بالعلم إلا أنه كان فى نفس الوقت مكانا لربات العلوم والفنون حيث وضعت تماثيل هذه الربات ربما كراعيات للعلوم والفنون والآداب، وربما يفسر هذا أيضا أن رئيس المتحف كان كاهنا إلى جانب وجود مدير للشئون المالية والادارية فيه.

ورغم أن المتحف قد تأثر بالظروف السياسية باعتباره مؤسسة حكومية ممولة من قبل الدولة ويعين رئيسه ومديره بل والعلماء والباحثون فيه بموافقة من الملك، إلا أنه لم يقف عن العمل وممارسة النشاط حتى بعد زوال ملك البطالمة ودخول مصر والاسكندرية إلى حوزة الحكم الرومانى. ولقد حباه الرومان بكل العناية والرعاية واستمر الوضع على ما كان عليه أيام البطالمة من حيث التمويل الحكومى والاقامة

الكاملة مع الرواتب الشهرية والاعفاء الضريبى وزيارة الاباطرة الرومان له والالتقاء مع العلماء وعقد المناظرات معهم.

لقد حرص الأباطرة الرومان هم الآخرون على استقطاب العناصر العالمة إلى المتحف وقد قام كثير من العلماء والباحثين باضافات علمية لها خطرها وشأنها ومن بين العلماء والباحثين الذين برزوا وازدهروا فى المتحف فى ظل الرومان هيرون الذى اخترع عدداً من الآلات الميكانيكية، وكلوديوس بطليموس عالم الفلك والجغرافى الشهير وجالينوس الطبيب المؤلف وفيلون وأفلوطين أصحاب المذاهب الفلسفية المجددة فى ذلك العصر وكذلك آريوس الفيلسوف الرواقى وغيرهم كثيرون.

وسواء نشأ المتحف حول المكتبة أو كانت المكتبة أداة من أدوات المتحف شأنها شأن حدائق الحيوان والنباتات والمعامل والمراصد الفلكية فقد كانت مؤسسة قائمة بذاتها وفاقت شهرتها شهرة المتحف نفسه، ربما لأنها نشأت قبله واستمرت بعده وربما لأنها كانت أهم أدواته تستقيم بدونه ولا يستقيم بدونها. المهم أنها نالت من الحظوة والاهتمام والكتابة مالم يحظ به المتحف نفسه.

ونحن لا نعرف على وجه اليقين ماهى الأسباب التى دعت إلى إنشاء المكتبة أو الأهداف المبتغاة من وراء إقامتها. وهل كانت مجرد محاكاة لمكتبات سبقت أو مكتبات عاصرت؟ هل كانت مكتبة يونانية أم مصرية أم قصد بها أن تكون مكتبة عالمية؟

ليست لدينا فى حقيقة الأمر إجابات محددة وقاطعة فى هذا الصدد وليس لأية اجابات أن تكون محددة أو قاطعة وإلا خرجت عن طبيعة الأشياء.

نحن نعلم أن الاسكندر الأكبر كان تلميذاً لأرسطو الذى كانت عنده مكتبة خاصة عظيمة الشأن أفاد منها الاسكندر وتأثر بها ومن المحتمل أنه عندما خطط لاقامة مدينة الاسكندرية كان من بين ما خطط له أن يكون فيها أكاديمية ومكتبة عظيمة على غرار أكاديمية ومكتبة أرسطو وهو الأمر الذى نفذه خلفاؤه لأنه هو نفسه لم يشأ له القدر أن يرى الاسكندرية بعدما قامت وأسست.

هناك آراء تشى بأن مكتبة الاسكندرية قصد بها أن تكون مستودعًا للفكر اليونانى، ولكن هناك على الجانب الآخر آراء توحى بأن مكتبة الاسكندرية قد قصد بها أن تكون مستودعًا للفكر العالمى سواء كان يونانيا محضًا أو أجنبيا نقل إلى اللغة اليونانية أو كتب أصلا باللغة اليونانية أو بقى بلغته الأصلية وخطه الأصلى. وأنا أميل فى حقيقة الأمر إلى هذا الرأى الأخير. لقد قامت مكتبة الاسكندرية منذ بادىء أمرها كى تكون مكتبة عالمية حيث بدأ الاسكندر الأكبر هذا الاتجاه إذ أمر بنقل التراث الفارسى والآشورى، والبابلى والمصرى إلى اللسان اليونانى وسواء أنه أمر بحرق الأصول أم أن هذه فرية افتريت عليه فى بعض المصادر فإن اللغة اليونانية قد ثريت بالفكر الأجنبى الذى نقل إليها ومن هنا تكون مكتبة الاسكندرية مكتبة عالمية قامت على الأرض المصرية ذات التاريخ العريق فى إنشاء المكتبات، ومواد الكتابة وأدوات الكتابة وأمناء المكتبات وحركة نشر الكتب والتأليف والمؤلفين فى كل المجالات؛ وبقرار من الحكام اليونانيين.

إدارة المكتبة

إن مما يؤكد على استقلال المكتبة عن المتحف أنه كانت لها إدارة مستقلة قائمة بذاتها وأن رئيس المكتبة كان يعين بقرار من الملك شأنه فى ذلك شأن رئيس المتحف ومديره، مما حمل البعض على اعتبار المؤسستين صنوين على مستوى واحد وهو ما أميل إليه وتشير إليه كل الشواهد ولقد حاولت جاهدًا أن أوفق قائمة رؤساء المكتبة من العديد من المصادر وعلى رأسها القائمة التى تناثرت فى حاشية تزيتزيس وبردية أوكسيرنخس (البهنسا من أعمال الصعيد). وربما تتفق قائمتنا جزئيا مع بعض القوائم التى استنبطها زملاء لنا وربما تختلف فالأمر كله متروك للمناقشة، لأنه فى حالة مكتبة الاسكندرية القديمة يكون الاستنتاج والاستنباط هو الأصل والأساس وليس ثمة شىء مسلم به:

قائمة خليفة	قائمة العبادى	قائمة غندور
ديمتريوس الفاليرى	ــــــــــ	ــــــــــ
٢٩٠ ـ ٢٨٢ ق.م	ــــــــــ	ــــــــــ
زينودوتس الأفسوسى	رينودوتس	زينودوتس الأفسى
٢٨٢ ـ ٢٦٠ ق.م	٢٨٥ ـ ٢٧٠ ق.م	٢٨٤ ـ ٢٦٠ ق.م
كاليماخوس الكرينى	ــــــــــ	كاليموخوس البرقاوى
٢٦٠ ـ ٢٤٠ ق.م	ــــــــــ	٢٦٠ ـ ٢٤٠ ق.م
أبوللونيوس الروديسى	أبوللونيوس الرودسى	أبولونيوس الروديسى
٢٤٠ ـ ٢٣٠ ق.م	٢٧٠ ـ ٢٤٥ ق.م	٢٤٠ ـ ٢٣٥ ق.م
ايراتوثينز الكرينى	اراتوستنيس	إيراتوستنيس القورينيائى
٢٣٠ ـ ١٩٦ ق.م	٢٤٥ ـ ٢٠٤ أو ٢٠١ ق.م	٢٣٥ ـ ١٩٥ ق.م
أرستوفانيس البيزنطى	أرستوفانيس	أرسطوفان البيزنطى
١٩٦ ـ ١٨٥ ق.م	٢٠١/٢٠٤ ـ ١٨٩ أو ١٨٦ ق.م	١٩٥ ـ ١٨٠ ق.م
أبوللونيوس الايدوجرافى	أبوللونيوس «المصنف»	أبولونيوس إيدجرافوس
١٨٠ ـ ١٦٠ ق.م	١٨٦/١٨٩ ـ ١٧٥ ق.م	١٨٠ ـ ١٦٠ ق.م
أرستارخوس الساموثى	أريستارخوس	أرسطوخاروس الشامورثيتى
١٦٠ ـ ١٤٦ ق.م	١٧٥ ـ ١٤٥ ق.م	١٦٠ ـ ١٤٦ ق.م
ــــــــــ	كوداس (الرماح)	ــــــــــ
ــــــــــ	١٤٥ ـ ١٦٦ ق.م	ــــــــــ
أونيساندر القبرصى	ــــــــــ	أونسندر القبرصى
١٠٠ ـ ٨٩ ق.م	ــــــــــ	١٠٠ ـ ٨٩ ق.م
كايريمون السكندرى	ــــــــــ	خيرمون الاسكندرى
٥٠ ـ ٧٠م	ــــــــــ	(من المرجح أنه فى القرن الأول الميلادى)
ديونيسيوس بن جلوكوس	ــــــــــ	ــــــــــ
١٠٠ ـ ١٢٠م	ــــــــــ	ــــــــــ
كايوس يوليوس فاسينوس	ــــــــــ	ــــــــــ
١٢٠ ـ ١٣٠م	ــــــــــ	

ومن الواضح أن القائمة التى أعدها صاحب هذا البحث تحمل أحد عشر اسمًا وتصل إلى نحو منتصف القرن الثانى الميلادى ولا تتضمن اسم كوداس (الرماح) الذى انفردت به قائمة العبادى ويغطى ثلاثين عاما مفقودة من القائمتين الآخريين. وتتضمن قائمة العبادى سبعة أسماء فقط اتفقت فى ست منها مع القائمتين الآخرين وانفردت كما رأينا باسم كوداس الرماح الذى يغطى فترة ثلاثين عاما لم تظهر فى القائمتين الآخرين. وقد أتت قائمة غندور على تسعة أسماء كلها ظهرت فى القائمة الأولى. والخلاف بين القوائم الثلاثة فى تواريخ تولى رئاسة المكتبة وضع طبيعى لأنه يوجد مثيل له حتى فى تواريخ الميلاد، كما أن الخلاف فى هجاء الأسماء وضع طبيعى بسبب الخلاف فى نطق الأسماء ونقحرتها من اليونانية إلى العربية. نفس هذا الخلاف حتى في ترتيب رؤساء المكتبة نجده داخل قوائم تزيتزيس نفسه فقد جاءت بعد زينودوتس بثلاث طرق مختلفة هى:

القائمة الأولى	القائمة الثانية	القائمة الثالثة
كاليماخوس الكرينى	أبوللونيوس السكندرى	كاليماخوس
إيراتوسثينز الكرينى	إراتوسثينز	إراتوسثينز
أبوللونيوس الروديسى	أريستوفانيس البيزنطى	أريستوفانيس البيزنطى
أريستافانيس البيزنطى	أبوللونيوس «المصنف»	أبوللونيوس الايدوجرافى
أريستارخوس الساموثى	أريستارخوس الساموثى	أريستارخوس

هذه الأسماء التى ظهرت كرؤساء للمكتبة أو مديرين لها يرى الباحثون فى بعضها أنها لم تصل إلى مرتبة رئيس أو مدير المكتبة ومن بينهم على سبيل المثال كاليموخوس، ويرون أنه كان مجرد أمين مكتبة وربما رئيس قسم فقط وأن وجه شهرته الحقيقى وارتباطه بالمكتبة يرجع إلى الفهرس العظيم الذى أعده لمجموعات المكتبة؛ كما أن من بينهم أيضا كوداس الرماح الذى يتساءل الدكتور مصطفى العبادى عن عمل رجل يحمل الرمح بين العلماء ثم يجيب على تساؤله بأنه تعيين استثنائى لظروف استثنائية عام ١٤٥ ق.م، وهى ظروف استئثار بطليموس الثامن بالسلطة فى أعقاب الحرب الأهلية مع أخيه الأكبر وأن كوداس عين لينفذ سياسة بطليموس الثامن والقضاء

على خصومه داخل جماعة الموسيون حيث نعرف أن أريستارخوس رئيس المكتبة السابق عليه اعتزل المنصب سنة ١٤٥ ق.م. وفر خارج البلاد مع علماء آخرين.

وتضيف بردية أوكسيرنخوس بعد كوداس الرماح هذا بطريقة غامضة غير مفهومة أسماء أمونيوس، زينو، ديوكولوس، أبوللونيوس، وكلهم من المؤلفين الذين التحقوا بالمتحف ولكن ليس ثمة دليل إطلاقا على أنهم تولوا رئاسة المكتبة بل ولا حتى كانوا من المكتبيين العاديين فيها. ورغم أن الدكتور مصطفى العبادى لم يسجل اسم أونيساندر فى قائمته إلا أنه فى تعليقه ذكر أن أونيساندر هذا هو آخر من ورد أنه تولى المنصب وهو قبرصى من بافوس ويستند فى ذلك إلى نقش من عهد بطليموس التاسع (سوتير الثانى)حيث نجد أونيساندر يحمل لقب المشرف على المكتبة الكبرى فى الاسكندرية ويقول سيادته بأنه من المحتمل أن أونيساندر هذا كان من أعوان سوتير الثانى فى فترة نفيه فى قبرص ثم كوفىء بتعيينه فى منصب المشرف على المكتبة بعد عودة الملك إلى الاسكندرية فى سنة ٨٨ ق.م.

ولابد حتى للعين العابرة من أن تلاحظ أن رؤساء المكتبة حسب القائمة السابقة قد جاءوا من مناطق مختلفة وجنسيات متعددة مما يؤكد عالمية المكتبة ويفسر ذلك أن مدينة الاسكندرية نفسها كانت فى ذلك الوقت مدينة جديدة جاء سكانها كما أشرنا سابقًا من أصقاع الأرض المختلفة ولم يكن فيها ما نطلق عليه السكان الأصليون أو السكان الوطنيون أصحاب المكان اللهم إلا مجموعة الصيادين المصريين فى قرية راقودة والذين لم يكونوا يمثلون سوى كسرة من سكان الاسكندرية بعد ذلك. ومن ثم فإنه طالما كانت الاسكندرية مدينة عالمية ومكتبتها مكتبة عالمية كان لابد للعاملين فيها ولمديريها بالضرورة أن يكونوا عالميين ينتمون إلى جنسيات ومناطق عالمية.

لقد كانت الشخصية الأولى فى رئاسة المكتبة هو بالضرورة المشرف على إنشائها ديمتريوس الفاليرى، الرجل الذى جاء من اليونان الأم، والذى تصفه المصادر بأنه شخص غير عادى، ثرى فى تجاربه سواء الناجحة أو الفاشلة، صاحب قلم ومفكر، فيلسوف ورجل دنيا، سياسى محنك، شرب من معين القوة، عاش عيشة فخمة مترفة

ولكنه أيضًا أكل العيش الجاف والجبن الخشن وشرب التفالة. لقد كان الرجل الذى فهم بطليموس الأول وفهمه بطليموس الأول ووثق فيه واتخذه صديقا وصاحبا ومستشاراً. وفى سنوات عمره المتأخرة شهد عصره الذهبى بمصاحبة الملوك وعليه القوم لدرجة أن بطليموس سوتر استشاره كما رأينا فيمن يخلفه على العرش من أبنائه.

ولد ديمتريوس فى فاليرون، أحد موانى أثينا الثلاثة فى أى من السنوات بين ٣٥٤ ـ ٣٤٨ ق.م. وكان أبوه يدعى فانوستراتوس. ومهما كانت نشأته المتواضعة فلقد تلقى تعليم شباب أثينا من الطبقة الراقية، ولقد واصل تعليمه العالى بعد ذلك فى الليسيوم (أكاديمية أرسطو) وتتلمذ على يد ثيوفراستوس تلميذ وخليفة أرسطو، وتشرب ينبوع حكمة هذه المدرسة، ورغم أنه لم يعاصر أرسطو إلا إنه بالضرورة سمع عنه وتعلم الأخلاقيات النبيلة التى دعا إليها ونمط الحياة الهادىء الوديع المعتدل الذى كان يدرسه فى الليسيوم والذى يقوم على ملاحظتنا الفاحصة للأشياء ولأنفسنا واعتناقنا لكل ماهو خير ورفضنا لكل ماهو سيء وشرير. ولقد دخل ديمتريوس معترك الحياة اليومية العامة بين الرابعة والعشرين والثلاثين من عمره (حوالى ٣٢٤ ق.م) وظهرت مواهبه الفذة كخطيب مفوه. وكان أخوه هيمرايوس عضوا نشيطا فى الحزب المعادى للمقدونية وضد الاسكندر وحركته، كما اشترك فى الحرب اللامية ولكنه أعدم مع كل من ديموسثينز وهيبريدس. ورحل ديمتريوس إلى بيرايوس للاقامة مع نيكانور حيث التقى مع كاساندر والتحق بحزب فوكيون حزب السلام والاصلاح. وكان كاساندر واحدا من حكماء اليونان ويحفظ أشعار هوميروس عن ظهر قلب ورجلاً من رجالات النهضة اليونانية وقد قام بتعيين ديمتريوس نائبًا له فى حكم أثينا وكان ذلك من حظ أثينا فيما يقول المؤرخون وبقى فى هذا المنصب عشر سنوات (٣١٧ ـ ٣٠٧ ق.م) وربما كان ذلك من أصعب المهام التى نجح فيها ديمتريوس ويقال أن مواطنيـة اعترافا بفضله صنعوا له ٣٦٠ تمثالا فى أوضاع مختلفة. وإلى جانب الخدمات السياسية والادارية التى قدمها لأثينا قام بأعمال ثقافية وفكرية جليلة لبلده ومن بينها قيامه باحصاء السكان ولم يكن أحد قبله قام بهذا العمل ونذكره هنا فقط على سبيل التمثيل:

٩٠,٠٠٠ مواطن أصلى

٤٥,٠٠٠ أجنبى

٣٦٥,٠٠٠ عبد

٥٠٠,٠٠٠ مجموع السكان

وبعد تقسيم امبراطورية الاسكندر عقب وفاته كان من نصيب ديمتريوس مدينة بيرايوس وما حولها ونصبه مواطنوه هو وأباه ملوكا وآلهة. ثم قلبت الدنيا له وجهها ونفى إلى طيبة (اليونانية) وربما ارتحل بعدها إلى مقدونيا واشتغل بالعلم والفلسفة طيلة سنوات النفى.

لقد كتب الرجل فى كل المجالات تقريبا من الحب إلى التشريع ومن هوميروس إلى بطليموس وكتب أشعاراً دينية ظل الناس يرددونها طيلة ستة قرون بعده وكتب تاريخًا مطولاً عن أثينا من واقع الوثائق التى توافرت لديه. وكنا نود لو وصلتنا السيرة الذاتية التى كتبها عن نفسه بعنوان (سنوات سيادتى العشر) لقد كان الرجل آخر الكتاب العظام فى الفترة الأثينية وربما أول عظماء فترة الاسكندرية.

لقد دعاه بطليموس الأول (سوتر) إلى القدوم إلى الاسكندرية سنة ٢٩٧ ق.م ولم يكن من بين من دعاهم بطليموس إلى بلاطه من ساسة وشعراء وفلاسفة وعلماء ولغويين وخطباء من يعدل ديمتريوس الفاليرى فى خدماته للملك وانجازاته لمدينة الاسكندرية وللفكر الانسانى عمومًا. ومن السهل أن نفهم كيف أصبح هذا الرجل متعدد المواهب صديقا ومستشاراً للملك وأخلص خلصائه ولكن من الصعب أن نفهم كيف احتفظ بهذه المنزلة طوال حياة بطليموس الأول وكيف أنه كان يختار للملك الكتب التى يقرؤها بل وكيف حمل الملك على قراءة ودراسة كتب الديمقراطية والحكومات المتحررة، بل وكيف كان الملك يستشيره فيمن يخلفه فى الحكم من أبناء زوجتيه؛ مما أغضب عليه بطليموس الثانى فيما بعد وجعله ينفيه إلى صعيد مصر، حيث عضه الصل (أفعى صغير) فمات ودفن هناك.

لقد تابع الرجل خلال حكم بطليموس الأول عملية دعوة الأدباء والفلاسفة والعلماء إلى الاسكندرية التى أدرك بحسه أنها ستكون درة مدن العالم ومركزها الفكرى والتجارى والسياسى. ولذلك اقترح على بطليموس الأول انشاء الجامعة المصرية التى عرفت باسم المتحف (الموسيون) مكان التقاء العلماء والباحثين من كل أنحاء الأرض ولتكون محرابا لربات الفنون التسع. وهنا يجب أن يكون للعلماء سكن وإقامة وقاعات محاضرات ومناظرات ومعامل ومراصد وقاعات طعام وحدائق حيوانات ونباتات. هناك يجب أن تجتمع علوم آسيا وافريقيا وأوروبا ولم يكن ديمتريوس بالرجل الحالم بل كان الرجل المفكر، الرجل المنفذ. وإلى جانب اقتراح انشاء الجامعة المصرية، اقترح انشاء مكتبة الاسكندرية وشرع فى جمع أول مجموعة كبيرة من الكتب والتى قدرها البعض بنحو مائتى ألف مجلد وقد أدرك بطليموس سوتر بحسه ومعرفته قدرة الرجل فعينه مشرفاً على المكتبة فيما تذكر المصادر. وقد أمل ديمتريوس أن يصل بتلك المجموعات إلى نحو خمسمائة ألف مجلد فى عهده. ومن هنا يكون ديمتريوس الفاليرى هو صاحب الفضل فى تنفيذ مكتبة الاسكندرية القديمة وأول رئيس لها وواضع لبنات المجموعات الأولى فيها وذلك فى عهد بطليموس سوتر. ولقد نمت المجموعات بعد ذلك من بطليموس إلى بطليموس حسب اهتمامات كل منهم وما يرصده للمكتبة من امكانيات وحسبما يتوافر لها من مديرين ورؤساء ومن المؤكد أن بطليموس الثانى (فيلادلفوس) قد حباها بنصيب كبير من اهتمامه ورصد لها مبالغ كبيرة من المال ساعدت بالقطع على تنميتها وتوسيع نطاق خدماتها.

من الشخصيات التى لمعت فى إدارة المكتبة زينودوتس من إفسوس الذى خلف ديمتريوس الفاليرى وقد جاء زينودوتس بطبيعة الحال بعد نفى ديمتريوس الفاليرى إلى صعيد مصر واعتلاء بطليموس الثانى عرش مصر. ومن المعروف أن زينودوتس كان تلميذ فيليتاس الشاعر اللامع والنحوى البارع ومربى بطليموس الثانى. لقد كان زينودوتس نحويًا وناقداً. وقد ولد فى سنة ما بين ٣٢٥ و ٣٢٠ ق.م. ولقد بدأ نجمه فى السطوع حوالى ٢٨٢ ق.م أى بعد وفاة بطليموس الأول مباشرة ولا نعرف متى توفي. وترى المصادر أنه أول رئيس للمكتبة، وربما كان ذلك صحيحا إذا اعتبرنا أن

ديمتريوس الفاليرى هو المنشىء لها ولم يتول هذا المنصب بصفة رسمية وقد قضى الفترة من ٣٠٧ ـ ٢٨٢ (أو من ٢٩٦ ـ ٢٨٢ فى مصادر أخرى) ق.م فى مجرد جمع الكتب من جميع أنحاء العالم وتنظيمها وتهيئتها للاستخدام وكان مديرا للمكتبة الملكية قبل فتحها أمام جمهور المستفيدين ولكن المنطق والانصاف يقتضى منا أن نضع ديمتريوس الفاليرى كأول مدير للمكتبة وزينودوتس كثانى مدير لها.

كذلك فإن من الشخصيات التى لمعت فى سماء مكتبة الاسكندرية فى عهد بطليموس الثانى شخصية الكسندر الأيتولى (من آيتوليا) المولود فى نحو ٣١٥ ق.م وهو شاعر ونحوى عاش معظم حياته فى الاسكندرية. وكان واحدا من الشعراء السبعة المعدودين فى التراجيديا السكندرية. وقد كلفه بطليموس الثانى باعداد قائمة بالمسرحيات الكوميدية والتراجيدية وعينه فى إحدى الوظائف المرموقة فى مكتبة الاسكندرية وقام بدور هام فى إدارة وتنظيم المكتبة وربما مساعداً للرئيس الثانى للمكتبة زينودوتس وإن ذكرت بعض المصادر أنه خلفه فى وظيفة المدير أو الرئيس. ونحن نعرف أن الكسندر الآيتولي ترك الاسكندرية سنة ٢٧٦ ق.م والتحق ببلاط أنتيجونوس جوناتيس فى بيللا. ولم يصلنا من أعماله إلا مسرحية تراجيدية واحدة وبعض القصائد.

ومن الأسماء التى وصلتنا من مكتبة الاسكندرية وكان دور فى إدارة وتنظيم المكتبة وإن لم تظهر فى قائمة المديرين اسم ليكوفرون من تشاليكيس كاتب التراجيديا والشاعر والنحوى والذى لا نعرف عن حياته إلا النزراليسير ولقد تبناه المؤرخ ليكوس عدو ديمتريوس اللدود. وهو من الشعراء السبعة المعدودين فى التراجيديا السكندرية وهو صاحب القصيدة العظيمة الاسكندرية التى ظل الناس يرددونها قرونا طويلة. ورغم أن مسرحياته كانت ضعيفة المستوى إلا أن أشعاره كانت قوية ناعمة أعجبت بطليموس وأرسنوى ومن أهم أعماله دراسته المستفيضة حول الكوميديا فى تسعة كتب. لا نعرف بالضبط متى ولد (فى سنة مابين ٣٣٠ ـ ٣٢٠ ق.م) ولا نعرف متى توفى وإن كان أوفيد يقول بأنه قتل بسهم. وتذكر بعض المصادر أنه عين مديراً

للمكتبة بعد الكسندر الآيتولى، ولكن ربما كان مساعداً للمدير أو رئيس قسم على أكثر تقدير. وتقدم المصادر أعماله الفكرية بنحو ستة وأربعين أو أربعة وستين مسرحية تراجيدية، ومسرحية كوميدية واحدة. وإن كان ما حصر منها هو عشرون عنوانا فقط.

ومن الأسماء التى يجب التوقف أمامها طويلا نسبيًا كاليماخوس الكرينى، وربما كان أشهر شخصية فى تاريخ مكتبة الاسكندرية، أشهر من ديمتريوس الفاليرى نفسه وذلك بسبب الفهرس العظيم الذى أعده لمقتنياتها؛ وتضعه المصادر كثالث رئيس للمكتبة وإن كانت هناك مصادر أخرى تنكر ذلك وتنفيه ويعتبر كاليماخوس فى نظر الكثيرين هو «أبو الببليوجرافيا» وأعظم كتبى فى عصره لقد كان باحثا قديرًا عالميا. ولد كاليماخوس حوالى ٣٠٥ ق.م وتاريخ وفاته غير معروف على وجه الدقة ويحدده البعض بنحو سنة ٢٤٠ ق.م ومن ثم يكون قد عاش فى عهد بطليموس الثانى وردحا من الزمن فى عصر بطليموس الثالث الملقب يورجيتس وكانت إدارته للمكتبة بين ٢٦٠ ـ ٢٤٠ ق.م أى نحو عشرين عامًا. وسوف نعود إلى مجهوده الفذ فى اعداد فهرس المكتبة (بيناكيس) وتطفو على السطح أيضا شخصية إراتوسثينز الكرينى التى ليس عليها أى خلاف فى الوصول إلى منصب مدير المكتبة وإن كان الخلاف حول الترتيب فقط هل جاء بعد زينودوتس أم كاليماخوس أو أبوللونيوس الروديسى؟ ومهما يكن من أمر هذا الترتيب فقد كان الرجل أهم وأمهر تلاميذ كاليماخوس وكان موسوعى المعرفة متعدد المواهب: هو عالم فى الرياضيات والجغرافيا والفلك والنحو والتاريخ والأنساب، واللغة والفلسفة بل وشاعر أيضًا. ويقال أنه مؤسس علم الفلك والجغرافيا الطبيعية. ولد سنة ٢٧٥ ق.م. ومن بين أساتذته كان أريستون، زينودوتس، كاليماخوس على الترتيب. يقول ألفرد كرواست عنه «بعد حياة حافلة فى أثينا دعاه بطليموس يورجيتس مرة ثانية إلى الاسكندرية وكان فى نحو سن الأربعين لإدارة مكتبة الاسكندرية الشهيرة بعد وفاة كاليماخوس» وتوفى الرجل فى سن الثمانين بسبب الامتناع عن الطعام وكان قد فقد بصره ومل حياته سنة ١٩٦ ق.م. وللرجل أعمال فكرية عديدة نثرًا وشعرًا. وليس هناك خلاف فى أنه مؤسس علم الحوليات وعلم الجغرافيا. ويعزى إليه قياس محيط الأرض وإذا كان فيثاغورس قد لقب

بالفيلسوف الأول فإن اراتوسثينز قد لقب بعالم اللغة الأول. ويبالغ البعض ويعتبره أعظم باحث فى العصر البطلمى كله.

من الشخصيات الفذة أيضا فى مكتبة الاسكندرية أبوللونيوس الكسندرى الذى عرف باسم أبوللونيسو الروديسى، وأيا ما كانت نسبته فهو واحد من تلاميذ كاليماخوس. وربما كان على خلاف كل مديرى المكتبة الوحيد الذى كان مصريا ولأنه كان ضد النظام الطبقى الذى ساد المتحف والمكتبة فقد ارتحل إلى رودس حيث حقق شهرة واسعة وسعادة غامرة فى مدارسها الفكرية هناك؛ ثم عاد إلى الاسكندرية فى عهد بطليموس الثالث يورجيتس (٢٤٧ - ٢٢١ ق.م). وقد خلف كاليماخوس فى إدارة المكتبة بعد وفاته وكان للرجل انتاج فكرى غزير شعرًا ونثرًا وقد أثار غيرة وحسد الكثيرين من أقرانه فى المتحف ونشب بينه وبينهم نزاع طويل انتهى كما رأينا برحيله إلى رودس. ليس هناك خلاف حول توليه منصب المدير ولكن الخلاف كما هى العادة فى الترتيب فهناك من يسجل أنه جاء بعد كاليماخوس وهناك من يذكر أنه جاء بعد إراتوسثينز إلا أن الرأى عندى أنه جاء بعد كاليماخوس لأنه لو جاء بعد اراتوسثينز لكان طاعنا فى السن حيث توفى اراتوسثينز بين ١٩٦ - ١٩٣ ق.م. وقد دفن فى المقبرة التى تلى مقبرة كاليماخوس مما يؤكد تلك الحقيقة.

ويعتبر أريستوفانيس البيزنطى من العلامات المضيئة فى إدارة وتاريخ مكتبة الاسكندرية بل وفى كل العالم القديم. ولقد كان الرجل تلميذًا لكل من كاليماخوس واراتوسثينز. كما كان على الجانب الآخر استاذًا ومعلمًا لأرستا خوس الذى خلفه فى إدارة المكتبة. ومما يذكر عنه أنه قد عين مديرا للمكتبة وهو فى سن الستين من عمره وإذا كان الرجل قد ولد بين ٢٥٧ و ٢٥٠ ق.م وتوفى حوالى ١٨٠ ق.م فإنه بالتالى يكون قد تولى أمانة المكتبة لمدة تصل إلى خمسة عشر عامًا. ومن المعروف أن أريستوفانيس جاء إلى الاسكندرية فى شبابه مع والده الجندى وبعد أن تعلم على يد أساتذتها العظام كرس حياته لدراسة علم اللغة وعين مديرا للمكتبة حوالى سنة ١٩٥ ق.م ويقال أنه زهد فى الوظيفة قبل وفاته بل وزهد فى الاسكندرية كلها ورحل إلى

سوريا فى سن متأخرة. ويقال أن يومينس الثانى ملك برجاموم فى الفترة (١٩٧ - ١٥٩ ق.م) دعاه ليتولى رئاسة مكتبة برجاموم الشهيرة. وكان أريستوفانيس من أخصب المؤلفين فى مجال علم اللغة والأدب، وقد احتل فيهما مكانة مرموقة بين المتخصصين فيهما.

وقد خلف أريستوفانيس فى إدارة المكتبة تلميذه أرستارخوس الساموثى وإن كان هناك جدل حول هذه الخلافة لأن بردية أوكسيرنخوس تضع بينهما شخصية أخرى هى شخصية أبوللونيوس «المصنف» أو الايدوجرافى في الفترة بين ١٨٠ - ١٦٠ ق.م وتزحزح أرستارخوس بين ١٦٠ - ١٣١ ق.م ولو كان أرستاخوس قد ولد حوالى ٢٢٠ ق.م حسب بعض المصادر فإن عمره عند تولى إدارة المكتبة يكون ستين عامًا وإن كان قد ولد بين ٢٠٢ - ٢٠٠ ق.م حسب مصادر أخرى فإن عمره آنذاك يكون أربعين عامًا. ونحن لا نعرف على وجه التحديد متى هرب من الاسكندرية وإن كان يظن أنه كان فى حكم بطليموس يورجيتس الثانى الطاغية (١٤٥ - ١١٦ ق.م) الذى كان تلميذا له. وإن كان يرجح أنه خرج مع تلميذه العجوز يورجيتس الثانى عندما طرد من الاسكندرية ١٣١ - ١٣٠ ق.م واستقر فى قبرص. ويقال أنه امتنع عن الطعام حتى الموت فى تلك الجزيرة قبيل عودة يورجيتس إلي الاسكندرية. ومن الغريب أن بطليموس يورجيتس الثانى هذا كان يعمل رغم طغيانه ووحشيته على دعم العلوم والفنون والآداب وتنمية مكتبة الاسكندرية بل ويقال أنه وضع بعض المؤلفات من بينها دراسة نقدية مطولة عن ملحمة الأوديسة فى ٢٤ كتابا، ومن بينها مؤلف مستفيض عن الآثار التاريخية. وفيما يذكر الدكتور كليبل أن أرستارخوس كان وراء التوسيع الكبير والاضافات القيمة التى قام بها بطليموس يورجيتس الثانى فى مكتبة الاسكندرية. ومن المعترف به أنه فى عهد هذا البطليموس السابع (يورجيتس الثانى فايسكون) استخدمت ثروات مصر فى رشوة حكام روما حتى يخففوا الضغط على مصر وكانت النتيجة أن عانت المكتبة والمتحف معاناة شديدة فتقلص البحث العلمى وقل انتاج العلماء وبحث كثير منهم عن مكان آخر خارج مصر وتحول المتحف من أكاديمية للبحث العلمى إلى جامعة لتدريس العلوم وتعليمها وعندما دخلت مصر فى حوزة الرومان، انتهى دور

البحث العلمى. وابتدأ أو استمر دور التدريس والتعليم فقط. وتذكر المصادر أن أرستارخوس كان أهم وأشهر النقاد فى الاسكندرية بل كان أمير النقاد فى كل العصر الكلاسيكى ومازال نقده لأعمال هوميروس يدرس ويدرس إلى اليوم. ومع نهاية عمله فى إدارة المكتبة يكون عصر المديرين العمالقة للمكتبة قد انتهى وجاء بعده عصر المديرين المغمورين الذين لا نشك أنه كان من بينهم بعض الشخصيات التى دفعت المكتبة والمتحف قدما إلى الأمام ولكن تعوزنا معلومات تفصيلية عنهم. إن مصدرنا الأساسى فيما بعد أرستارخوس هى بردية أوكسيرنخوس وهى بردية عثر عليها بين ما عثر عليه الدكتور بيرنارد جرينفل والدكتور آرثرهنت من برديات قديمة وحديثة بالشعر والنثر فى أطلال مدينة أوكسيرنخوس فى الصحراء الغربية المصرية على بعد ١٣٠ كيلو مترا من القاهرة وكان هذا الكشف سنة ١٩٠٣/ ١٩٠٤م وهذه البردية تدور حول مكتبة الاسكندرية هذه البردية تحمل رقم ١٢٤١ بين برديات هذه المجموعة من أوكسيرنخس وتحمل هذه البردية ستة أعمدة من الكتابة المتصلة كتبت بخط أونسيال وترجع إلى النصف الأول من القرن الثانى بعد الميلاد فى عصر الأباطرة الرومان الأول. ويتضمن هذا العمل مجموعة من القوائم من بينها:

أ - قائمة بالنحاتين والمثالين والرسامين والنحويين المشاهير.

ب - أمناء المكتبة فى الاسكندرية.

ج - الأشخاص الذين أشعلوا الحروب والذين اخترعوا آلات حربية وقننوا قواعد الصراع.

ونحن لا نعرف من وضع تلك البردية أو أعد تلك القوائم، هل أعدها أحد الباحثين أم أحد طلاب العلم وهل كانت توضع فعلاً موضع الاستخدام الفعلى أم أنها كانت فقط للاستخدام الشخصى؟ إن قائمة أمناء مكتبة الاسكندرية تالفة جزئيا فى نهاية العمود الأول ولكنها فى حالة جيدة فى كل العمود الثانى والقائمة كلها تحتل عشرين سطراً ونصف السطر.

ومهما يكن من أمر فإنها تمدنا بمعلومات إضافية عن مديرين آخرين للمكتبة فى نهاية العصر البطلمى وأوائل العصر الرومانى مثل أونيساندر القبرصى وكايريمون السكندرى (خيرمون فى قراءات أخرى) وديونيسيوس ابن جلوكوس وكايوس يوليوس فاسينوس. ويمكن الرجوع إلى النص المنشور للبردية والذى توفر على تحريره ونشره بعناية فائقة الدكتور آرثرهنت ومساعده اللامع البروفيسور ف. فون فيلاموفيتز ـ مولندورف؛ وحيث لم يدخر العالمان وسعًا فى تحقيق هذه الوثيقة النادرة تحقيقا علميًا متأنيا.

الفصل الثالث
مجموعات مكتبة الاسكندرية القديمة

ألمحنا فيما سبق إلى أن مكتبة الاسكندرية كانت مكتبة عالمية ومن ثم كان لابد لهذه العالمية من أن تنعكس على تكوين المجموعات وطبيعتها. وكان لثروة وسلطان وقوة البطالمة، كما كان لاسم الاسكندر فعل السحر أمام وكلائهم الذين جابوا الأركان الأربعة للعالم الهلليني والبحر الأبيض المتوسط والمدن الآسيوية بل وحتى المناطق الريفية بحثًا عن الكتب والوثائق من كل نوع وشكل. وكانت الكتب يتم الحصول عليها بأى شكل وبأى طريقة سواء كانت شريفة أو غير شريفة؛ بالشراء أو بالقوة. وعندما عرف أن هناك سوقًا رائجة للكتب فى الاسكندرية أسرع تجار الكتب من كل حدب وصوب إلى ملكة المدن المصرية لبيع أندر الكتب وأثمن الوثائق للبطالمة هناك.

ولقد جلبت كميات كبيرة من الكتب بصفة خاصة من أثينا ورودس مركزى النشر الكبيرين للكتب اليونانية فى ذلك الوقت. ومن المؤكد أن المدن اليونانية الكبرى فى آسيا الصغرى وفى بلاد الشام كانت هى الأخرى أماكن محتملة لتوريد الكتب إلى الاسكندرية ومن جهة أخرى كانت المكتبات الشخصية مجالاً خصبًا لتغذية مكتبة الاسكندرية بمجموعات كبيرة والمثال هنا يأتى من مكتبة أرسطو ومكتبة ثيوفراستوس، اللتين باعهما نيليوس تلميذ وقريب ووريث ثيوفراستوس بثمن ضخم إلى أبليكون ثم إلى مكتبة الاسكندرية.

ومن طرق الحصول على الكتب تفتيش حمولات السفن التى كانت ترسو فى ميناء الإسكندرية ومصادرة أية كتب توجد على متنها وتستنسخ منها نسخ فقط تعطى لأصحابها ويحتفظ بالأصول فى المكتبة مع أية تعويضات تطلب إذا كانت هناك أية مشاكل فى هذا الإجراء. ومن الطريف أنه فى السنوات الأولى للمكتبة كانت المجموعات الصادرة من السفن تعزل فى مكان خاص ويؤشر عليها بعبارة (كتب السفن) ولا نعرف الدلالة الحقيقية لتلك التأشيرة.

وهناك قصة مشهورة أشار إليها جالينوس عن كيفية حصول بطليموس الثالث (يورجيتس) على النسخ الأصلية والنسخ التى بخط مؤلفيها من أعمال أسخيلوس، سوفوكليس، يوريبيدس من داخل أثينا حيث ذهب صيادو الكتب ودفعوا رهنًا مقابل الحصول على تلك النسخ الأصلية وذلك لاستنساخها ولكنهم أعادوا النسخ الجديدة واحتفظوا بالأصول وتنازلوا عن الرهن.

ومن خلال هذه الطرق تجمع عدد ضخم من الكتب لابد وأنه شمل كل الإنتاج الفكرى اليونانى المكتوب شعراً أو نثراً. وربما نتوقف هنا برهة لنقول بأن المكتبة الرئيسية فى حى البروكيوم ربما تكون قد ضاقت بما تجمع فيها من كتب فاستدعى الأمر إنشاء مكتبة فرعية لها فى معبد سيرابيس أو السيرابيوم فى حى راقودة (راكوديس). ومن هناك دأب الكُتَّاب والمؤرخون على الإشارة إلى المكتبة الرئيسية فى الحى الملكى باسم المكتبة الكبرى أو المكتبة الأم وإلى المكتبة الفرعية فى السيرابيوم على أنها المكتبة الصغرى أو المكتبة الابنة.

والحقيقة أنه ليست لدينا أرقام محددة أو دقيقة عن حجم المجموعات أو عدد الكتب التى كانت موجودة فى المكتبتين؛ ولا ينبغى أن يكون لدينا مثل هذه الأرقام المحددة أو الدقيقة إلا إذا ارتبطت بتاريخ معين. فإذا وضعنا تلك الحقيقة نصب أعيننا فإننا يجب أن نقبل الأرقام التى نجدها على علاتها ونحللها على ضوء مصدرها. لقد أعطى الكُتَّاب الإغريق واللاتين أرقامًا مختلفة عن عدد الكتب (اللفافات) التى كانت مقتناة فى المكتبة؛ ويجب أن نعرف أن اللفافة الواحدة تمثل مجلدًا فى زماننا وأن العمل

الواحد قد يقع فى عدة لفافات كما أن اللفافة الواحدة قد تنطوى على عدد من الأعمال سواء كانت أعمالاً شعرية أو أعمالاً نثرية.

•لقد بدأ ديمتريوس الفاليرى (٣٥٤ ـ ٢/٢٨٣ ق.م) الذى جاء إلى الإسكندرية بعد سنة ٣٠٧ ق.م كما رأينا مهمة جمع الكتب فى ظل بطليموس الأول سوتر. وقد ذكر جوزيفوس (يوسف) المؤرخ اليهودى فى القرن الأول الميلادى أن ديمتريوس الفاليرى

جمع ٢٠٠,٠٠٠ لفافة وكان سند جوزيفوس فى هذا الشأن رسالة أرستياس وربما كان جمع هذا العدد قد تم دون فرز ودون ترتيب وتركت هذه المهمة لأمناء المكتبة فى عهد بطليموس فيلادلفوس ومن بعده. من جهة ثانية أمدتنا حاشية تزيتزيس على أرستوفانيس التى كتبت على هامش مخطوط بلوتوس من القرن الخامس عشر والذى عثر عليه سنة ١٨١٩ فى الكلية الرومانية الباحث أوسان، أمدتنا هذه الحاشية بالأرقام الآتية عن عدد اللفافات فى كل من المكتبتين:

* فى المكتبة الرئيسية بالمتحف فى حى البروكيوم ٤٠٠,٠٠٠ لفافة غير مصنفة
(التى أطلق عليها المكتبة الداخلية) ٩٠,٠٠٠ لفافة مصنفة ومرتبة

* فى المكتبة الخارجية التى فى حى راقودة
المصرى فى معبد السيرابيوم. ٤٢,٨٠٠ لفافة مرتبة ومصنفة

وهذه الأرقام تدل على ما كانت عليه المجموعات فى زمن كاليماخوس الذى توفى فى سنة ما بين ٢٣٥ و ٢٤٠ ق.م.

وفى القرن الثانى الميلادى كتب أولوس جيليوس عن مجموعات المكتبة خلال الكتاب أو العمل الذى كتبه لأطفاله «ليالى أثينا» - يقول:

«كمية ضخمة من الكتب تصل إلى حوالى ٧٠٠,٠٠٠ مجلد تم شراؤها أو نسخها فى مصر تحت حكم الملوك المعروفين باسم البطالمة».

كذلك كتب إميانوس مارسيللينوس سنة ٣٩٠م عن المجموعات يقول: «لقد كان هنا فى هذا السيرابيوم مكتبات ثمينة وقد وقفت على مصادر قديمة مجهولة المؤلف تقول بأنه تجمع فيها ٧٠٠,٠٠٠ مجلد توفر على جمعها الملوك البطالمة». وقد جاءت هذه المعلومات فى كتابه «التاريخ الرومانى» الذى يعتبر تتمة أو تكملة لتاريخ تاكيتوس.

وفى مطلع القرن الخامس كتب باولوس أوروسيوس يقول بأنه كان فى مكتبة السيرابيوم نحو أربعين ألف لفافة. ويؤكد سينيكا (٤ ـ ٦٥م) على وجود أيضًا نفس هذا الرقم.

هذه الأرقام المختلفة تشير إلى أن أقصى رقم وصلت إليه المجموعة هو ٧٠٠,٠٠٠ مجلد وذلك حتى القرن الأول قبل الميلاد أى قبل الحريق الجزئى الذى عساه يكون قد وقع مع ضرب يوليوس قيصر للإسكندرية. ومن أسف أنه ليست لدينا أرقام مؤكدة بعد القرن الأول قبل الميلاد بعد ذلك الحادث وبعد تعويض كليوباترا كما قيل بمكتبة برجاموم بعد سقوطها فى يد أنطونيو سنة ٤١ ق.م والتى قدرت بنحو ٢٠٠,٠٠٠ لفافة من رقوق وبردى تلك المكتبة التى كانت فخراً للملوك الأتاليين. كذلك فإن من الصعب معرفة الاتجاهات الموضوعية لمقتنيات المكتبة حيث لم يصلنا حتى الفهرس الذى وضعه كاليماخوس للمجموعات.

يقول إدوارد ألكسندر بارسونز أنه من المؤكد بعد الدفعة القوية والبداية العظيمة التى ابتدأها ديمتريوس الفاليرى فى جمع الكتب للمكتبة فى فترة قدرت بعشر سنوات، قام المديرون المتعاقبون على المكتبة كل حسب طاقته ومنزلته بجمع المزيد من الكتب بأعداد ونوعيات مختلفة؛ وأن هذا التيار المتدفق من التزويد عبر قرنين ونصف من الزمان انصرمت بين ديمتريوس الفاليرى وكليوباترا والذى بدأ كما رأينا بمائتى ألف كتاب، وانتهى بمائتى ألف أخرى من مكتبة برجاموم أضيفت إلى المكتبة السكندرية، هذا التيار لابد وأن يكون قد ارتفع بمجموعات مكتبة الإسكندرية إلى نحو مليون لفافة.

إن المرء ليدهش حقيقة من هذا العدد الضخم من الكتب حتى ولو انطوى على نسخ مكررة أو وقع العمل الواحد فى عدة مجلدات. إننا نستطيع أن نركب الموضوعات التى عالجها هذا الإنتاج المتراكم على الأقل بالنسبة للكتب اليونانية على أساس أن جميع الكتب اليونانية فى الحقبة الكلاسيكية قد تم جمعها ابتداءً من هوميروس وحتى

ديموسثينز وأرسطو والمؤلفين السكندريين والمؤلفين الأجانب الذى كتبوا باليونانية أو ترجمت أعمالهم إلى اليونانية. كما أننا يجب أن نضيف إلى ذلك الحواشى والتعليقات وكتب الكتب. لقد كان هناك الشعر الذى أبدعه شعراء الحقبة الممتدة وأتباعهم من أمثال فيليتاس، كاليماخوس، لايكوفرون، أبوللينوس، إيفوريان، ثيوقريطس، بيون، موسخوس. وكان هناك النثر الذى أبدعه الكتاب والدارسون من أمثال ديمتريوس، زينودوتس، الكسندر الآيتولى، أريستوفانيس البيزنطى، أرستارخوس. وكانت هناك الكتابات العلمية والاختراعات والاكتشافات التى أبدعها العلماء من أمثال إراتوسثينز، إقيلدس، أرشميدس، كونون، هيبارخوس النيقى الذى أضاف إلى الفكر اليونانى مالم يضفه أحد طوال الفترة الكلاسيكية. لقد كانت هناك أيضًا الكتابات اللغوية والدراسات الفيلولوجية والنحوية التى أبدعها علماء اللغة والنقد. لقد جاء جانب كبير من الإنتاج من مراكز النشر المختلفة خارج مصر أنتجتها المناسخ فى أثينا، رودس، قوص، أنطاكية، برجاموم، طرطوس، نيقيا، بيزنطة، سراقوسة، كوماى، بيللا وغيرها كثير. ولا ينبغى أن نغفل إلى جانب الكتاب والمؤلفين المحدثين أولئك المؤلفين اليونانيين القدامى.

وإذا كانت مكتبة الإسكندرية القديمة قد حرصت على جمع كل أو جل الإنتاج الفكرى اليونانى قديمه وحديثه فإنها بالضرورة قد تطلعت أيضًا إلى جمع ما يمكن جمعه من كتب الأمم الأخرى بلغاتها أو خطوطها مثل كتب اليهود وكتب المصريين، وكتب البابليين والآشوريين وكتب الفرس، وهذا يتمشى بطبيعة الحال ولا يتنافر أبدًا مع التركيبة السكانية لمدينة الإسكندرية التى جمعت كل الجنسيات وكل اللغات وكل الخطوط البشرية.

لقد ورث الإغريق حضارتين عظيمتين فى الشرق القديم هما الحضارة الآشورية امتداد الحضارة البابلية والتى سبقت الحضارة الفارسية والحضارة المصرية؛ ومن ثم سعى الإغريق إلى محاولة معرفة لغة وتاريخ وثقافة مصر وآشور ويؤكد السير فلندرزبترى ماذهبت إليه سابقًا من أن مكتبة الإسكندرية القديمة اشتملت على ترجمات

يونانية لكثير من الكتب باللغات الأخرى كاللغة المصرية القديمة، واللغة العبرية واللغة الفارسية واللغة البونية وغيرها.

ومن الثابت تاريخيًا أنه عاش فى الإسكندرية رهط كبير من اليهود وكان لهم كما أسلفنا حى خاص بهم وكانوا يشعرون بالتميز دون سائر البشر لأنهم شعب الله المختار وكانت لهم شريعتهم ودينهم وكتبهم المقدسة التى وجدت طريقها إلى المكتبة سواء عن طريق الترجمة إلى اليونانية أو عن طريق النص الأصلى.

ولقد ورد خبر تلك الكتب اليهودية فى وثيقة عرفت باسم «رسالة أرستياس» الذى كان موظفًا رسميًا فى بلاط بطليموس فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٧ ق.م). وتشير هذه الوثيقة إلى خبر ترجمة أسفار اليهود إلى اليونانية حسب طلب ديمتريوس الفاليرى أمين المكتبة الملكية وقد عرفت تلك الترجمة بالترجمة السبعينية، والتى اشتهرت فيما بعد بالعهد القديم اليونانى. وسميت بالترجمة السبعينية لاشتراك اثنين وسبعين مترجماً فى عملها. وهذه القصة جاءت على شكل رسالة بعث بها آرستياس إلى أخيه فيلوكراتيس. ويزعم آرستياس أنه كان عضواً فى البعثة التى أرسلت من الإسكندرية إلى أورشليم القدس لجلب نسخة من شريعة اليهود (العهد القديم) والاتفاق مع عدد من المترجمين الفلسطينيين.

وعندما كتب ديمتريوس الفاليرى إلى بطليموس يخبره بالتقدم العظيم الذى حققه فى جمع الكتب للمكتبة ذكره بأن هناك عدداً كبيراً من كتب الشريعة اليهودية تستحق أن تجمع وتقتنى فى المكتبة إلا أنها مكتوبة بالخط العبرى غير المقروء بالنسبة لليونان وأن هذه الكتب اليهودية مليئة بالحكمة المخفية وليس عليها أى غبار لأنها شريعة الله ولا يدرى السبب الذى من أجله كما يقول هيكاتيوس الأباديرى أغفل الشعراء والمؤرخون ذكرها وذكر أحبار اليهود الذين يحملون هذه الشريعة رغم أنها شريعة مقدسة ولا ينبغى للأفواه الدنسة أن ترددها.

ولطرافة هذه الرسالة فسوف أقتبس منها النص الآتى حسب كلام آرستياس نفسه.

[«لقد أخبرت أنا (ديمتريوس) أن لليهود أيضًا شرائع خاصة بهم تستحق النسخ

والاقتناء فى المكتبة» فرد الملك «وما الذى يمنع من القيام بذلك إذن؟ إن كل الوسائل الضرورية لذلك موجودة فى خدمتك. ورد ديمتريوس بأن الترجمة مطلوبة أيضًا لأنهم فى بلاد اليهود يستخدمون خطًا خاصًا بهم (كما هو الحال بالنسبة للمصريين الذين لهم حروفهم) كما أنهم يتكلمون لغة خاصة. إنه يظن على العموم أنهم يستخدمون اللغة السوريانية ولكن هذا خطأ، إنها لهجة مختلفة». وعندما علم الملك كل الحقائق، أصدر أمره بكتابة خطاب إلى كبير أحبار اليهود حتى ينفذ الاقتراح السابق»].

ويقال أن الملك أمر بتحرير الأسرى والعبيد اليهود فى مصر، كما أمر ديمتريوس بأن يكتب تقريرًا عن أوضاع المكتبة. وقد وضع ديمتريوس التقرير التالى بناء على أوامر الملك:

[« إلى الملك العظيم من ديمتريوس. إطاعة لأوامر جلالتكم أيها الملك بإضافة الكتب المطلوبة إلى مجموعات المكتبة وترميم تلك الكتب التالفة وإصلاحها، لقد بذلت أقصى العناية فى سبيل ذلك وتم المطلوب فعلاً. إننا نحتاج إلى كتب الشريعة اليهودية وقليل غيرها وهى مكتوبة بالحروف العبرية وباللسان العبرى وهى مترجمة ترجمة مهملة إلى حد ما بحيث لا تمثل النص الأصلى وذلك طبقًا للمعلومات التى قدمها لى الخبراء لأن تلك الترجمات لم تتم أبدًا تحت رعاية الملك. ومن المهم أيضًا أن تقتنى تلك الكتب فى حالة جيدة بالمكتبة لأن هذه الشرائع لكونها مقدسة مليئة بالحكمة وخالية من الأخطاء. ولهذا السبب أمسك المؤلفون والشعراء وجموع المؤرخين عن ذكر تلك الكتب والرجال الذين يؤمنون بها لأن الآراء الموجودة فيها لها طهارة وقدسية من نوع خاص فيما يقول هيكاتيوس الأباديرى. فإذا كان ذلك بالأمر الطيب أيها الملك فإن من الممكن كتابة خطاب إلى كبير الأحبار فى أورشليم القدس نسأله فيه أن يرسل ستة أشخاص كبار من كل سبط، رجالاً من أعلى مستوى متفقهين فى شريعة بلدهم ليدلونا على الأجزاء الأكثر أهمية فى تلك الكتب ومن ثم نحصل على ترجمة دقيقة تتخذ مكانها السامى، وبطريقة تنفيذ تتفق مع الإرادة السنية. ولنا النجاح والتوفيق»].

وقد كتب الملك بطليموس خطابًا إلى كبير الأحبار إليعازار يقول فيه «إننا نريد أن نصنع معروفًا ليس فقط فى اليهود الموجودين فى الجيش والبلاط ولكن أيضًا لكل يهود العالم وللأجيال المقبلة، ولذلك فقد انصرفت إرادتنا إلى ترجمة شريعتكم من اللسان العبرى المستخدم لديكم إلى اللغة اليونانية، وكذلك أن توضع هذه الكتابات فى مكتبتنا مع المجلدات الملكية الأخرى».

وقد رد إليعازار بالإيجاب قائلاً «لقد اخترنا ستة رجال كبار من كل سبط، رجال طيبين وصادقين وقد أرسلنا معهم نسخة من الشريعة».

ونجد فى الرسالة أسماء المترجمين ووصفًا للهدايا الملكية وتقريراً عن رحلة البعثة اليونانية إلى يهوذا ووصف حى شاهد عيان لمدينة أورشليم ووصف إليعازار المكتوب للشريعة اليهودية، ووصف لاستقبال المترجمين فى مدينة الإسكندرية وإقامتهم والأسئلة التى وجهها الملك إليهم والإجابات التى تلقاها منهم. وبعد ثلاثة أيام اصطحب ديمتريوس المترجمين إلى بيت مخصوص أعد لهم فى جزيرة فاروس. وقد انتهت أعمال الترجمة فى اثنين وسبعين يومًا وياله من اتفاق فى عدد المترجمين وعدد الأيام.

إلى جانب ترجمة العهد القديم إلى اليونانية ووضع الترجمة والأصول فى المكتبة، تمت ترجمة العديد من الكتب المصرية القديمة إلى اليونانية ووضعت الترجمات والأصول فى المكتبة وعلى رأسها أعمال مانيتو وقبل أعمال مانيتو ترجم تقويم سايس إلى اليونانية. كما كتب المؤلفون اليونانيون فى فترات مختلفة عن العجائب المصرية والأسرار الفرعونية ولكن للأسف لم تصلنا تلك الأعمال. لقد عاش مانيتو الكاهن المصرى فى زمن كل من بطليموس الأول سوتر (٣٢٣ ـ ٢٨٣ ق.م) وولده بطليموس الثانى فيلادلفوس (٢٨٥ ـ ٢٤٦ ق.م). وهذا الكاهن الأعظم كاتب الأسرار المقدسة المصرية ولد فى سيبنتوس واتخذ هيليوبوليس مقراً له. وكان مانيتو فيما يبدو مستشاراً لبطليموس سوتر وله علاقة وطيدة بالمستشار الروحى للملك تيموثيوس وكان لهما اليد الطولى فى إرساء عبادة سيرابيس التى اجتمع عليها المصريون واليونانيون معًا.

لقد كان مانيتو كاهناً على درجة عالية من الثقافة والفكر ورجل أدب من الطراز الأول وكتب كثيراً من الكتب باليونانية حول التاريخ والدين المصرى ومن ثم نقل إلى اليونانيين كثيراً من المعلومات المقدسة والحوليات التاريخية للقدماء المصريين التى كتبت بالكتابة الهيروغليفية. ولقد كان الرجل مؤهلاً كل التأهيل لينقل العلوم المصرية إلى اللغة اليونانية فقد تعلم فى جامعة هيليوبوليس، العلوم التى كانت ترعاها الإلهة سيشات (حتحور) سيدة الفكر وسيدة المكتبات والتى كتبت بخط يدها أعمال وإنجازات حكام مصر. وقام الرجل بنقل ما أمكن نقله من العلوم المكتوبة بالهيروغليفية إلى اليونانية والتى يعتقد أنها كانت مكتوبة بخط يد حتحور. ولقد كانت درجة الثقة فيما كتب مانيتو أعلى بكثير من درجة الثقة فيما كتبه هيرودوت. لقد وقعنا على نص مكتوب على ورق الشجر بخط يد حتحور وتحوت وآتوم عن الشجرة المقدسة. وقد توفر مانيتو على نقل هذه الشجرة المقدسة إلى اليونانية كأحسن ما يكون النقل، ويعتقد أن تسمية مانيتو تعنى «محبوب تحوت» أو «لسان صدق تحوت». ولم يكتف مانيتو بنقل كتابات حتحور فقط بل نقل أيضًا الكثير من المصادر التى تمكن من الوصول إليها فى مكتبات القصور الفرعونية، مكتبات المعابد كما لكل الكتب المقدسة المصرية، كتاب الموتى، الوصفات الطبية للأحياء، حوليات الملوك المصريين التى دأب الكهنة على الاحتفاظ بها عبر الأجيال كما نقل الوثائق الاقتصادية الخاصة بالمعابد والإقطاعيات، كما نقل قسطًا كبيراً من القطع الأدبية النثرية والشعرية على السواء. لقد بقى إلى زمن مانيتو الآلاف من البرديات والمسلات والآثار التى تحمل كتابات دينية وتاريخية وأدبية وعلمية خاصة بالآلهة والبشر والأموات والحكام مكتوبة بالكتابات المصرية القديمة (هيروغليفية، هيراطيقية، ديموطيقية) ترجم منها مانيتو ما استطاع ترجمته إلى اليونانية، واستقر الباقى بلغته وكتابته المصرية فى مكتبة الإسكندرية. ومن بين ما ترجم نستطيع أن نميز:

١ - قائمة أبيدوس الملكية. وتضم معلومات عن ٦٧ ملكًا (وكانت مكتوبة على جدار الممر المعتم فى معبد سيتى الأول فى أبيدوس وتبدأ من مانيس حتى سيتى الأول).

٢ ـ قائمة الكرنك الملكية. وتضم معلومات عن ٦١ ملكًا (من مانيس وحتى تحتمس الثالث). وهى موجودة الآن فى متحف اللوفر.

٣ ـ قائمة سقارة الملكية. وتضم معلومات عن ٥٨ ملكًا ولكن جزءاً منها كسر ولم يتبق سوى معلومات عن ٤٧ ملكًا (من ميبيس الأسرة الأولى). وهى موجودة الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة.

٤ ـ بردية تورينو. وهى مكتوبة بالخط الهيراطيقى على ظهر وثيقة قديمة ترجع إلى عصر رمسيس الثانى (حوالى ١٢٠٠ ق.م). وبيانات عن الملك الخاصة به على الوجه. أما الوثيقة التى نحن بصددها (الظهر) فإنها تضم أسماء الملوك متتابعين والتى تربو على ثلاثمائة مع ذكر سنوات حكم كل منهم بالسنين والشهور والأيام وللأسف لم تنشر هذه البردية نشراً سليمًا دقيقًا كاملاً حتى الآن. وهذه البردية موجودة الآن فى متحف تورينو.

٥ ـ حجر باليرمو. ويحمل قائمة بالملوك العظام فى المملكة القديمة بدءًا من الأسرة الخامسة.

وإذا كان مانيتو قد نقل هذه الأعمال وغيرها من كتابات غيره فإن المصادر قد سجلت أنه كتب باليونانية أعمالاً من تأليفه من بينها:

١ ـ تاريخ مصر.

٢ ـ كتاب سوثيز.

٣ ـ الكتاب المقدس.

٤ ـ ملخص قوانين الطبيعة.

٥ عن الاحتفالات.

٦ ـ عن الشعائر والديانات القديمة.

٧ ـ حول صناعة الكايفى (نوع من البخور).
٨ ـ نقد هيرودوت.

ومن أسف أنه لم يصلنا أى عمل من أعمال مانيتو المترجمة أو المؤلفة؛ وكل ما وصلنا مجرد مقتطفات عبر مقتطفات فى أعمال أخرى نقلت من الأصول على نحو ما نجده فى كتابات جوزيفوس اليهودى (نحو ٣٧ ـ ١٠٠م) الذى كان يكتب تاريخ اليهود حتى ذلك الوقت. وقد قام أحد المؤلفين بتلخيص ملخصه عن قوانين الطبيعة ولكنه هو الآخر فقد وبقيت منه مقتطفات فى كتب بعض الكتاب المسيحيين. وقد اعتمد سكتوس جوليانوس أفريكانوس (الإفريقى) فى كتابة حولياته منذ بدء الخليقة من سنة ٥٤٩٩ وحتى إيلاجابالوس سنة ٢١٧ أو ٢٢١م والتى بلغت خمسة كتب، اعتمد على حوليات مانيتو ولكن حتى حوليات أفريكانوس نفسها فقدت ولم يصلنا منها سوى مقتطفات فى كتابات بعض الكتّاب المتأخرين فى العصرين الهللينى والرومانى وفى القرن الثامن قام جورج الراهب بنقل بعض المقتطفات التى نقلها سينسيلوس سيدرينوس من مانيتو، وكان عمل جورج الراهب بعنوان تاريخ العالم (منذ آدم حتى الامبراطور ديوقليتيان). ومن الثابت أيضًا أن من بين من اقتطفوا من مانيتو ولكن على نطاق ضيق كل من: بلوتارخ، ثيوفيلوس، آيليان، فورفوريوس، ديوجينيس لايرتيوس، ثيودوريتس، لايدوس، مالالاس،حواش أفلاطون، وغيرهم؛ ومن الطريف أننا من هذه المقتطفات نستطيع أن نخرج بكتب كاملة من أعمال مانيتو (ومن المعروف أن مانيتو عاش عهد بطليموس الثانى فيلادلفوس وكان محورًا لبحوث ودراسات العديد من المؤلفين فى عصرنا).

ونريد أن نؤكد للمرة الثانية أن كثيرًا جدًا من الكتب المصرية جمعت من مظانها المختلفة لتستقر كما هى فى مكتبة الإسكندرية القديمة ولعل هذا هو سر عدم عثورنا على مقتنيات المكتبات المصرية القديمة قبل مكتبة الإسكندرية وهى كثيرة جدًا رغم عثورنا على مبانيها بل وبعض فهارسها.

وكما حرصت مكتبة الإسكندرية القديمة على اقتناء الكتب المصرية القديمة سواء فى أصولها أو ترجماتها فقد حرصت أيضًا على اقتناء الكتب البابلية والآشورية والفارسية.

وكما فعل مانيتو قام ميناندر الفينيقى بكتابة تاريخ الفينيقيين وقام بيروسوس كاهن بعل ـ ماردوك البابلى بكتابة تاريخ بابل. ونحن لا نعرف إلا القليل عن حياة بيروسوس، فقد كان كاهنا بابليًا من قالديا وكان ذا تعليم راق وعاصر الإسكندر الأكبر وعاش فى عهد أنطيوخوس الأول (٢٨٠ ـ ٢٦١ ق.م) وقد أهدى له كتابه عن تاريخ بابل، وكان عالمًا بالفلك ويقال أنه أسس مدرسة للفلك فى قوص ودرّس فى أثينا، كما يقال أنه صنع له هناك تمثال لسانه من ذهب. وكانت له نظريات جديدة فى البصريات لعكس أشعة الشمس والقمر وقد وصفه البعض بأنه أكثر المؤرخين فى غربى آسيا علمًا وقد انتشرت أعماله الفكرية فى بلاد اليونان وبلاد الرومان. ويقدر المؤرخون أن بيروسوس عاش ما بين ٣٥٦ و ٢٦١ ق.م.

وإلى جانب تاريخ بابل قام بيروسوس بكتابة العديد من الكتب باليونانية من بينها عمل مستفيض عن تاريخ بلاد مابين النهرين فى ثلاثة مجلدات: الأول منذ بدء الخلق حتى الطوفان والثانى من الطوفان حتى نبوخذ نصر والثالث من نبوخذ نصر حتى الإسكندر الأكبر وأنطيوخوس الأول. لقد رسم الرجل فى كتابه صورة للحياة البدائية استقاها من الكتابات التى وجدها على معبد بعل فى بابل جاء فيها دراسة طيبة عن حيوانات ماقبل التاريخ كما درس ألواح الطين وما عليها من كتابات مسمارية حول الملوك الغابرين فى المنطقة. ولكن للأسف الشديد لم يصلنا هذا العمل العظيم وكل ماوصلنا كما هو الحال فى اعمال مانيتو مجرد مقتطفات فى أعمال تلاميذه والكُتَّاب الذين تعاقبوا بعده ومن بين من نقلوا عنه تلميذه أبيدينوس الذى وضع كتابًا عن تاريخ آشور، وكذلك أبوللودورس وألكسندر الملقب بأبى التاريخ (بوليهستور). وبعض مقتطفات من هذه المقتطفات نجدها عند نيقولاس الدمشقى صديق هيرود، ونجدها عند جوزيفوس المؤرخ اليهودى وأثينايوس وجوليوس أفريكانوس ويوسيبيوس وجورج سينسيلوس.

لقد وجدت الكتب التى كتبت فى قالديا، بابل، ميديا، بلاد الفرس طريقها بالضرورة إلى مكتبة الإسكندرية. يقول إدوارد بارسونز إنه من الصدف العجيبة أن يكتب بيروسوس كاهن بعل ـ ماردوك تاريخ قالديا فى ثلاثة كتب، ويكتب مانيتو

الكاهن المصرى فى الإسكندرية تاريخ مصر فى ثلاثة كتب ويهدى الأول مجلداته إلى أنطيوخوس الأول الحاكم اليونانى فى غربى آسيا، ويهدى الثانى مجلداته إلى بطليموس الثانى الحاكم اليونانى فى مصر.

لقد وجد كُتّاب آخرون كثيرون غير يونانيين أقل مرتبة من مانيتو المصرى وبيروسوس البابلى، استقرت أعمالهم فى مكتبة الإسكندرية وإن لم يصلنا منها شىء سوى مقتطفات ومقتطفات المقتطفات. من بين هؤلاء المؤلفين نذكر:

١ ـ ميناندر الصورى، الإفسوسى وربما البرجامى. صاحب كتاب تاريخ صور أو تاريخ فينيقيا أو قائع اليونانيين والبرابرة فى عهد ملوك صور.

٢ ـ ديوس. صاحب كتاب تاريخ فينيقيا الذى نقل عنه جوزيفوس المؤرخ اليهودى مقتطفات كثيرة وطويلة تتعلق بسليمان وحيرام.

٣ ـ هيبسكريتس. صاحب كتاب تقرير فينيقيا وقد كتب بالفينيقية وترجمة أسيتوس أو لايتوس.

٤ ـ ثيودوتوس. صاحب عمل مستفيض عن تاريخ فينيقيا ترجم كذلك إلى اليونانية.

٥ ـ فيلوستراتوس. كتب عن تاريخ فينيقيا وعن تاريخ الهند كما كتب عن حصار صور.

٦ ـ هيرونيموس من كانديا فى عهد انتيجونوس وهو أحد المؤرخين الفينيقيين المعدودين. كتب أيضًا عن تاريخ فينيقيا.

٧ ـ موخوس. مؤرخ فينيقى ورد ذكره كثيراً فى كتب أثينايوس، ربما كان من صيدا. يعزو إليه استرابون النظرية الذرية.

٨ ـ سانخونياثون. مؤلف فينيقى مجهول ربما كان مسئولاً عن الكتب المقدسة الفينيقية. كما سجل الأساطير الفينيقية وكلها ترجمت إلى اليونانية وإن لم يصلنا منها شىء سوى مقتطفات.

٩ ـ فيلو من بيلوس. كتب فى الأساطير والديانات الفينيقية ونقل كثيراً عن

سانخونياثون. ولم يصلنا من إنتاجه سوى مقتطفات.

ومن الهند أيضًا جاءت كتب وأعمال كثيرة مترجمة وأصلية إلى مكتبة الإسكندرية تلك القارة التى غزاها الاسكندر بعد أن دمر الامبراطورية الفارسية ووضع حدًا للممالك المتشرذمة هنا وكانت مهيأة للدخول فى الامبراطورية الجديدة عندما توفى الإسكندر. ولكن قفز إلى الحكم واحد من أبنائها هو شاندراجوبتا الذى كان معجباً بالإسكندر وعبده ضمن ما عبد من آلهة هندية، وقد خلف شاندراجوبتا ابنه بندوسارا الذى أنجب الحاكم العظيم (أسوكا) الذى يمثل الجيل الثالث فى تلك الأسرة الحاكمة هناك. هؤلاء الحكام الهنود الثلاثة: شاندراجوبتا - بندوسارا - أسوكا - كانت لهم صلات وثيقة وعلاقات طيبة مع خلفاء الإسكندر المقدونيين، والعالم الهلليني. وقد أرسل سلوقس سفيره ميجاسثينز إلى بلاط شاندراجوبتا فى مهمة أو بعثة محددة هى جمع كل الإنتاج الفكرى الذى أبدعه الهنود القدماء فى جميع فروع المعرفة البشرية. وإلى بلاط نبدوسارا أرسل السفير ديماخوس من بلاتيا. ولم يتردد البطالمة فى إرسال البعوث هم أيضًا إلى الهند كما فعل السلوقيون فى سوريا فأرسل بطليموس الثانى سفيره ديونيسيوس إلى البلاد الهندى لجمع الكتب الهندية لمكتبة الإسكندرية.

لقد قام أسوكا بإرسال بعوث هندية كثيرة إلى البلاطات الهللينية ومنها بطبيعة الحال بلاط البطالمة فى مصر حيث شوهدت هذه البعثات فى شوارع الإسكندرية وفى المدن المصرية المختلفة ومن المؤكد أن تلك البعثات قد حملت معها كتبًا هندية كثيرة ولكن للأسف ضاعت كلها مع ضياع سائر مقتنيات المكتبة. لقد ظل تيار العلاقات الثقافية المصرية الهندية متدفقًا يجلب معه بصفة مستمرة الكتب الهندية إلى مكتبة الإسكندرية.

إننى أختتم هذه المعالجة لمجموعات مكتبة الإسكندرية القديمة بسؤال جسور ليست له إجابة وهو هل تعرف ما كانت عليه مجموعات مكتبة الاسكندرية وماذا كانت الكتب الموجودة بين جنباتها؟ لقد كانت فى ظنى جميع الكتابات التى كتبها اليونانيون منذ هوميروس مروراً بالحقبة الهللينية والتقويم الوثنى كله وما بعده حتى القرن السابع الميلادى، كما كانت جل الكتابات غير الإغريقية التى تجمعت من مصر وفينيقيا والهند

وروما وغربى أوروبا؛ جمعت جميعًا باللغة التى أجادها المقدونيون وأعنى بها لغة القوة.

لم تكن مكتبة الإسكندرية فقط أكبر وأعظم وأهم مجموعة كتب يونانية تجمعت على مدار التاريخ، ولكنها أيضًا فى أزهى عصورها كانت أعظم وأكبر مكتبة عرفها العالم والتاريخ حتى القرن الثامن عشر الميلادى.

وأجد لزامًا علىّ فى هذه الخاتمة أن أقدم هنا حاشية تزيتزيس على الأقل فى صيغة واحدة من صيغها حيث أنها النص الوحيد الذى نعتمد عليه فى تقدير حجم مجموعات مكتبة الإسكندرية والذى نقل عن نص معاصر للمكتبة لم يصلنا.

لقد اكتشف هذا النص باحث يعرف باسم ف. أوسان فى مكتبة الكلية الرومانية القديمة فى كتاب من رق يرجع إلى القرن الخامس عشر من تأليف بلوتوس يتضمن خمس عشرة مسرحية وكان ذلك الكشف فى سنة ١٨١٩م. لقد وجد هذا الباحث حاشية فى ورقة بين مسرحيتين. وقد وقعت هذه الحاشية باسم كايكيوس، وهذه الحاشية تتعلق بمكتبة الإسكندرية. وقد قدم كايكيوس هذه الحاشية إلى ماينكه الذى قام بنشرها وقد بلغ عدد سطورها فى المخطوط ١٣ سطراً وفى المطبوع خمسة عشر سطراً. وكان أول نشر لها سنة ١٨٣٠م وقد قام و. وندورف بتحقيق اسم كايكيوس وقال بأن اسمه الحقيقى هو جوهان تزيتزيس وهو باحث بيزنطى من القرن الثانى عشر. وقام ف. ريتشل سنة ١٨٣٨ بنشر النص اللاتينى ثم مرة أخرى مع تعليقات سنة ١٨٦٦م.

ويسير النص مترجمًا إلى العربية على النحو الآتى:

[قام ألكسندر من آيتوليا ولايكوفرون من كالكيس وزينودوتس من أفيسوس بناء على طلب من الملك بطليموس المشهور باسم فيلادلفوس الذى كان يهتم جداً بمواهب وشهرة العلماء، بجمع كتب الشعر اليونانية وتنظيمها وترتيبها: ألكسندر قام بجمع وترتيب التراجيديات؛ لايكوفرون قام بجمع وترتيب الكوميديات، زينودوتس قام

بجمع وترتيب قصائد هوميروس وغيرها من القصائد الرائعة. ولأن هذا الملك كان على معرفة بالفلاسفة وغيرهم من الكتاب المشهورين فقد طلب الحصول على الكتب من جميع أنحاء العالم بقدر الإمكان على نفقة البلاط الملكى السخى وكلف ديمتريوس الفاليرى (وغيره من المستشارين) بذلك. وقد أعد مكتبتين لذلك إحداهما خارج القصر والثانية داخل القصر. وفى المكتبة الخارجية كان هناك ٤٢,٨٠٠ مجلد وفى مكتبة القصر كان هناك ٤٠٠,٠٠٠ مجلد مركب و٩٠,٠٠٠ مجلد مفرد وملخصات طبقًا لما قال به كاليماخوس رجل البلاط وأمين المكتبة الملكى والذى سجل بيانات تلك المجلدات الكثيرة. وكان هناك شخص آخر قدم نفس هذه المعلومات هو إراتوسثينز الذى كان رئيسًا لنفس المكتبة ليس بمتأخر كثيرًا عن كاليماخوس. هذه المجلدات العلمية التى استطاع الحصول عليها جاءت من كل الشعوب وبكل اللغات وقد أمر الملك بترجمتها إلى لغته بأقصى درجة من العناية على يد أمهر المترجمين. والآن تم جمع كل الأشعار على يد بيزستراتوس الذى عاش قبل بطليموس فيلادلفوس بمائتى عام، بأقصى درجة من العناية. والآن جمع شعر هوميروس الذى كان مشتتًا من قبل، وقد قام بتلك المهمة المقدسة أربعة من العلماء المشهورين وهم بالاسم: كونيلوس؛ أونوماكريتوس الأثينى؛ زوبيروس من هرقلية؛ أورفيوس من كروتون. وقبل ذلك الوقت كانت أشعار هوميروس مشتتة قطعًا قطعًا وتقرأ بصعوبة. وبعد عناية بيزستراتوس بأشعار هوميروس للمرة الأولى، وتحت رعاية بطليموس يقوم أرستارخوس بكل الدقة باستكمال مجموعة هوميروس. يقول هيليودوروس أشياء كثيرة مناقضة لذلك بشكل مضحك قام تزيتزيس بدحضها على نحو مطول؛ لأنه (هليودوروس) يقول بأنه تم جمع أعمال هوميروس بواسطة ٧٢ عالمًا عينهم بيزاستراتوس لهذا الغرض لأن هؤلاء (أى الاثنين وسبعين عالمًا) قاموا فى حقيقة الأمر بأعمال كلفوا بها من قبل زينودوتس وأرستارخوس وقد فضلوا عمن سواهم، والزيف واضح هنا حيث أنه كانت هناك ٢٠٠ سنة بين بيزستراتوس وزينودوتس وكان أرستارخوس أصغر بنحو أربع (و) سنوات من كل من زينودوتس وبطليموس.]

وإلى هنا تنتهى حاشية تزيتزيس وليس هنا مجال التعليق عليها سطراً بسطر لأنها كانت فى حقيقة الأمر مثار تعليقات كثيرة باعتبارها أقرب مصدر إلى مكتبة الإسكندرية.

فهرسة وتصنيف مجموعات مكتبة الإسكندرية

لكى نكشف عن المجهود الخرافى الذى بذل فى فهرسة وتصنيف مقتنيات مكتبة الإسكندرية على يد كاليماخوس ومعاونيه لابد أن نستدعى أرقام تلك المقتنيات وطبيعتها حيث قلنا أنه كانت هناك على وقت كاليماخوس ٤٠٠ ألف لفافة مركبة و١٣٢ ألف لفافة مفردة، ومعنى اللفافة المركبة أنها تشتمل على عدد من المؤلفات القصيرة داخل اللفافة الواحدة سواء كانت تلك المؤلفات لمؤلف واحد أو لعدد من المؤلفين، وسواء كانت كلها فى مجال واحد أو فى عدد من الموضوعات. ويقصد باللفافة المفردة أنها تضم عملاً واحداً لمؤلف واحد ومن ثم فى موضوع واحد. ومن جهة ثانية فإن العمل الواحد يمكن أن يقع فى عدة مجلدات أى لفافات، خذ على سبيل المثال عملاً مثل الإلياذة أو الأوديسة التى قام زينودوتس الذى أشرت إليه سابقًا بتقسيمها إلى ٢٤ كتابا ليس فقط كى تتساوى مع حروف الأبجدية الإغريقية ولكن أيضًا كى يضم كل كتاب ألف بيت من الشعر ومن ثم يمكن تسجيل كل كتاب فى لفافة من الحجم المعقول. ومن الطبيعى أن يكون هناك من الأعمال فى اللفافات المركبة بقدر ما تشتمل كل لفافة من عدد هذه الأعمال ويكون العدد النهائى للأعمال المجموعة ضخمًا للغاية وعلى سبيل التقدير والتقريب لو اشتملت كل لفافة مركبة فى المتوسط على خمسة أعمال قصيرة لكان مجموع الأعمال نحو مليونى عمل فى المجموعة المركبة فى المكتبة الأم يضاف إليها ١٣٣ ألف عمل مفرد ليصل عدد الأعمال إلى نحو مليونين ومائة وخمسين ألف عمل. وحتى لو كانت هناك نسخ مكررة من العمل الواحد أو من اللفافة المركبة فإنها لابد وأن تخضع جميعًا للفهرسة والتصنيف لأننا فى حالة المخطوطات نفهرس كل نسخة على حدة لأن الملامح المادية التى توصف تتفاوت حتمًا

من نسخة إلى نسخة وليس هناك أية فرصة للتطابق كما هو الحال فى المطبوعات. وإذا أضفنا إلى ذلك أن كل لفافة كانت تحتاج إلى فردها لاستقاء البيانات منها وحيث لا توجد لا صفحة عنوان ولا عناوين جارية ولا بيانات معزولة فى مكان خاص عن المؤلف والعنوان والناسخ ومكان النسخ وتاريخ النسخ، ويجب أن نضيف إلى ذلك أيضًا عوامل تلف بعض اللفافات وعدم وضوح الخط فى بعضها وانطماس البيانات فى البعض الآخر وعدم التنميط فى إخراج اللفافات؛ إذا وضعنا ذلك كله فى الحسبان وأضفنا إليه العصر الذى أعد فيه فهرس مكتبة الإسكندرية أدركنا مدى الجهد الضخم والوقت والمال الذى بذل فى إعداد هذا الفهرس ولقتلنا الحزن والأسف والغم على المصير الذى لقيه هذا الفهرس مع مقتنيات تلك المكتبة.

لقد احتاج الأمر للتعامل مع هذا الكم الهائل من اللفافات إلى فرز مبدئى لها لترميم ما يحتاج أو يمكن ترميمه ثم توزيع مبدئى على أساس المؤلفين أو الموضوعات أو ربما الخطوط وربما أيضًا مصدر الحصول عليها كما ألمحنا من قبل «كتب السفن»، بل يذهب البعض إلى أن الفرز المبدئى ربما يكون على أساس الشعر والنثر وقد يكون الأمر قد انصرف إلى عزل الأعمال الدرامية عن الأعمال غير الدرامية ومهما يكن من أمر الفرز المبدئى فإن الفهرسة النهائية والتصنيف قام بهما كاليماخوس ورفاقه فى فهرس عرفه العرب باسم فينكس تحريفًا عن الاسم اليونانى بيناكيس أى القوائم.

فهارس كاليماخوس

من الثابت تاريخياً أن قدماء المصريين ومن بعدهم الآشوريون ثم كاليماخوس كانوا رواداً فى علم المكتبات وإعداد الفهارس والببليوجرافيات. وإن كان كاليماخوس يوصف بأنه أبو الببليوجرافيا، وذلك لعدم حصولنا على أسماء المصريين أو الآشوريين الذين سبقوه فى هذا المضمار وإن كانت أعمالهم قد وصلتنا. ومن المؤكد أن ما قام به كاليماخوس هو أكبر وأضخم عمل ببليوجرافى ليس فقط فى وقته ولكن حتى القرن التاسع عشر الميلادى، وما قام به جزنر فى القرن السادس عشر وخلفاؤه فى السابع عشر والمحاولات التى جرت فى الثامن عشر، وما حاوله كل من بول أوتليت وهنرى

لافونتين فى القرن التاسع عشر وأوائل العشرين؛ كل ذلك ليس سوى كسرة محدودة للغاية مما نفذه فعلاً وقام به كاليماخوس ورفاقه فى القرن الثالث قبل الميلاد. وعندما ندرك أن ثلاثة فقط هم الذين قاموا بهذا العمل المستفيض أدركنا مدى الجهد الذى قام به كل منهم والزمن الذى استغرقه كل منهم من عمره فى هذا العمل حتى لقد قيل بأن كاليماخوس قد ودع الشعر وطلقه وتزوج العمل البيليوجرافى وتفرغ له. ولعل أحسن من أرخ لكاليماخوس وفهارسه وجهوده البيليوجرافية هو رودلف بلوم فى كتابه «كاليماخوس: مكتبة الإسكندرية وأصول البيليوجرافيا». وقد كتب بالألمانية وترجمه إلى الإنجليزية هانز ويليش ونشرته جامعة ويسكونسن سنة ١٩٩١.

والكتابات عمومًا حول كاليماخوس وحياته وأعماله محدودة بل ومليئة بالتناقضات. وقد تواتر فى المصادر القليلة أنه كاليماخوس أبوه باتوس وأمه ميزاتما [أوميجاتيما] من كيرين اشتغل بالنحو وهو تلميذ النحوى هيرموكراتيس من إياسوس وقد تزوج ابنة يوفراتيس من سيراكيوز وابن أخته يدعى أيضًا كاليماخوس (الأصغر) كتب ابن أخته شعرًا كثيرًا عن الجزر ويحدث اللبس بينهما من هذا المنطلق. ولقد عاش كاليماخوس القرن الثالث قبل الميلاد. ويقال أنه كتب أكثر من ثمانمائة كتاب وربما كانت عبارة عن رسائل صغيرة. وقد عاش فى عصر بطليموس فيلادلفوس. وقبل أن ينخرط فى بلاط الملك كان يعمل مدرسًا فى المدرسة الابتدائية فى إيلوسيس وكانت ضاحية من ضواحى الإسكندرية ويقال أنه عاش حتى وقت بطليموس الثالث يوجريتيس.

ومن خلال إنتاجه الفكرى والكتابات القليلة التى كتبت عنه يمكننا القول أنه كان نحوياً أى مشتغلاً بعلم اللغة، كما كان شاعراً وكما أسلفنا كان بيلوجرافياً. وكما يظهر من قائمة مديرى مكتبة الإسكندرية فى الفصل السابق عمل الرجل فى المكتبة من ٢٦٠ ـ ٢٤٠ ق.م.

وكبيليوجرافى فقد أعد كاليماخوس عددًا من البيليوجرافيات والفهارس من بينها قائمة بأعمال كتَّاب المسرحيات الأثينيين وقائمة بكتابات ديموقريطس. وأهم أعماله

البيليوجرافية على الإطلاق هو فهرس مكتبة الإسكندرية ولابد من التنبيه بداية إلى حقيقة هامة وهى أن جميع أعماله البيليوجرافية وفهارسه يشار إليها باسم: بيناكيس على سبيل الاختصار.

والعنوان الكامل لقائمة أعمال كتّاب المسرحيات الأثينيين هو «قائمة وسجل كتّاب المسرحيات مرتبة زمنيًا منذ البداية». أما قائمة أعمال ديموقريطس فعنوانها «قائمة حواشى وكتابات ديموقريطس».

والعمل البيليوجرافى الذى يتصل بمكتبة الإسكندرية هو قوائم المؤلفين الإغريق وأعمالهم. وهذا العمل هو أعظم عمل أنجزه كاليماخوس ويفوق جميع أعماله الأخرى كلها شعرية أو نثرية بمراحل، ليس فقط بسبب استفاضته (١٢٠ كتاباً أو مجلداً) ولكن أيضاً فى أهمية هذا العمل وخطورته. وهذا العمل العلمى هو قمة أعمال كاليماخوس العلمية والذى تردد ذكره كثيراً عند المؤلفين القدامى جميعهم. والعنوان الكامل لهذا العمل كما وضعه كاليماخوس نفسه هو: «قائمة بهؤلاء الذين تميزوا فى كل فروع المعرفة وكتاباتهم».

وينظر إلى هذه القوائم على أنها: فهرس مشروح لمكتبة الإسكندرية كما ينظر إلى كاليماخوس على أنه الراعى المقدس للمفهرسين. وينظر بعض الباحثين إلى هذه القوائم ليس فقط على أنها فهرس ولكن أيضا على أنها بيليوجرافية عالمية مستفيضة للعصور القديمة؛ ذلك أنها تتضمن معلومات أكثر بكثير مما يتضمنه فهرس أى مكتبة؛ فهى تقدم عن كل مؤلف نبذة مختصرة عن حياته وسيرته وقائمة بأعماله الفكرية حتى تلك الأعمال المفقودة التى لم تصل إلى المكتبة ومعلومات عن أى شك يتطرق إلى نسبة العمل إلى المؤلف. وكما سنرى فيما بعد رتب المؤلفون تبعاً لفئات واسعة. لقد جاءت هذه القوائم سجلاً تحليلياً وافياً بالإنتاج الفكرى فى العالم القديم؛ وربما كانت أول تأريخ للفكر يحاول مسحًا كاملاً للكتب الإغريقية حيثما وأنى وجد.

ورغم أنه كان فى مصر فهارس وفى العراق القديم فهارس وربما فى مناطق أخرى من الشرق القديم فإن كاليماخوس لم يكن أمامه نموذج يحتذيه فى عمله المستفيض لأن

أهدافه البيليوجرافية كانت غريبة تماماً. لقد قصد الرجل إلى جعل المعلومات والأفكار المخبأة فى الإنتاج الفكرى الإغريقى متاحة للباحثين فى كل مكان وفى كل زمان كما أمل. ومن جهة ثانية نجد أن الشرق نظر إلى الكتب كأشياء ثمينة ولم يشأ إتاحتها إلا على نطاق ضيق ومن ثم اخترع نظاما معقداً لحفظها.

وللأسف الشديد لم يصلنا من هذا الفهرس إلا مقتطفات من مقتطفاته التى تسربت إلى أعمال مؤلفين آخرين وقام مؤلفون سواهم باقتباس بعضها ومن هنا فإن معلوماتنا عن هذا الفهرس وعن طريقة تنظيمه وعن طريقة تنظيم اللفافات وترتيبها داخل المكتبة هى مجرد تخمينات غير يقينية جاءت من خلال إعادة تكوين المتقطفات المحدودة التى وصلتنا.

لقد قسم كاليماخوس فهرسه إلى أقسام رئيسية وكل قسم قسَّمه إلى شُعَب وربما قسِّمت كل شُعْبَة إلى فروع. ولكن كم كان عدد الأقسام الرئيسية، هذا أمر لم نعرفه تحديداً وإن كان قد وصلتنا سياسته فى تقسيم الموضوعات عن طريق الاقتباسات التى نجدها فى المصادر. ولسوء الحظ لم يصلنا سوى ثلاث فقط من الأقسام الرئيسية هى:

١ ـ الخطابة.

٢ ـ القوانين.

٣ ـ متفرقات.

وهذه الأقسام الثلاثة جاءتنا عن طريق مقتطفات أثينايوس من هذا الفهرس، وقد أمدنا عرضاً بمعلومات عن قسمين آخرين هما التاريخ والفلسفة وقد أكد على قسم الفلسفة كاتب مقتبس آخر هو ديوجينس لايرتيوس.

لقد كانت هناك بدون شك قوائم أخرى أعدت بعد عهد كاليماخوس اعتمدت على الخطوط العريضة لتلك القوائم التى أعدها كاليماخوس ويقال إن من بينها قوائم أعدها هيرميبوس من سميرنا وهو من أتباع كاليماخوس وربما أحد معاونيه فى إعداد فهرسه، كما يقال أن أرستوفانيس البيزنطى الذى كان واحداً من مديرى المكتبة بعد

كاليماخوس قد أعد نسخة منقحة من ذلك الفهرس وربما أعد فهرسًا جديدًا مبنيًا على عمل كاليماخوس. ومن المحتمل أن يكون هناك من الباحثين فى سنوات مختلفة بعد هذا الفهرس قد قاموا باستخراج بعض الفصلات منه كما أنه من المحتمل أن تكون مكتبات أخرى قد نقلت عن هذا الفهرس نموذجًا لها والأمثلة على هذا الاتجاه كثيرة.

ويعتقد رودلف بلوم أن فهارس كاليماخوس قد أعدت منها نسخ مختلفة وكانت تستخدم استخدامًا مكثفًا داخل وخارج المكتبة طالما كانت المكتبة فى أوج ازدهارها. ومن الثابت أن الباحثين فى القرون الأولى الميلادية كانت لديهم نسخ من تلك الفهارس ولما كانت رغبة الباحثين فى الكتب الكلاسيكية ماتزال متأججة فى القرنين الثالث والرابع بعد الميلاد فقد تم نقل هذه الفهارس من اللفافة إلى الكراس، ولكن بعد القرن الرابع الميلادى وخفوت الرغبة فى الكتب الكلاسيكية وبعد إهمال مكتبة الإسكندرية، أهمل الفهرس نفسه ولم يعد يستنسخ وإذا نسخ فقد كان ذلك بعدد ضئيل من النسخ اختفت مع اضمحلال الثقافة والفكر الكلاسيكى ودخول العالم إلى منعطف آخر.

ومن خلال المقتطفات التى وصلتنا وإعادة تركيب المعلومات يمكننا تتبع تصنيف هذه الفهارس والأسلوب البيليوجرافى بها على الوجه الآتى:

١ ـ تم تقسيم المؤلفين إلى فئات وداخل كل فئة يتم تقسيمهم إلى فئات فرعية إذا استدعى الأمر ذلك (حوالى ١٢٠ فرعا). وكان كل قسم أو فرع فى لفافة أو مجلد واحد.

٢ ـ تم ترتيب المؤلفين داخل القسم الواحد أو الفرع الواحد فى ترتيب هجائى.

٣ ـ تمت إضافة معلومات بيوجرافية عن حياة كل مؤلف كلما أمكن ذلك.

٤ ـ تحت اسم كل مؤلف تم إدراج عناوين كتبه مع تجميع مفردات النوع الواحد منها معًا.

٥ ـ تحت كل كتاب تقدم الكلمات الأولى فى النص وعدد السطور التى يقع فيها العمل

أما عن الأقسام الرئيسية فقد وصلنا عدد من التصورات لها نأتى على بعضها. لقد قدم لنا بارسونز تصوره للأقسام الرئيسية على أنها عشرة أقسام تسير على النحو الآتى:

١ - الشعر الملحمى وغيره من الأشعار غير الدرامية.

٢ - الدراما.

٣ - القوانين.

٤ - الفلسفة.

٥ - التاريخ.

٦ - الخطابة والبلاغة.

٧ - الطب.

٨ - العلوم الرياضية.

٩ - العلوم الطبيعية.

١٠ - متفرقات.

وهناك من بين هذه الأقسام العشرة ثلاثة (القانون، الخطابة، المتفرقات) وصلتنا عبر مقتطفات مباشرة من فهرس كاليماخوس، وخمسة (القانون، الفلسفة، التاريخ، الخطابة، المتفرقات) وصلتنا عبر إشارات وصفية إلى الفهرس مما يؤكد على الثلاثة المباشرة. أما الثلاثة الباقية فهى مجرد استنتاجات تحتمل الصواب وتحتمل الخطأ وفى انتظار ما يؤكدها، أو ينفيها. وكما قلنا قُسِّم كل قسم منها إلى شُعَب وكل شُعْبَة إذا احتاج الأمر إلى فروع وعلى سبيل المثال قُسِّمت الدراما إلى: تراجيديا وكوميديا.

المهم أنه تحت كل قسم رئيسى أو فرعى قدم الفهرس اسم المؤلف ومكان الميلاد (النسبة)، اسم والده، أسماء أساتذته وتعليمه، اسم الدلع إن وجد، الاسم المستعار إن وجد، سيرته مختصرة كلما أمكن. بعد هذه البيانات البيوجرافية، تدرج أسماء أى

عناوين المؤلفات (وإن لم يكن لأيها عنوان قام المفهرس باختيار عنوان مناسب) ويصحب كل عنوان تعليق على صحته وصحة نسبته إلى المؤلف وأخيراً ترد تبصرة بالكلمات الأولى من النص، ثم عدد السطور التى يقع فيها النص بالضبط لكل عمل على حدة ولمجموع أعمال المؤلف الواحد. وعدد السطور فى كل عمل كان مسألة هامة لضبط حجم النص وتحديد مكافأة الناسخ وأيضًا كمرجع عام.

وكما أشرت من قبل رتب المؤلفون داخل القسم أو الفرع فى ترتيب هجائى ولكن مع بعض الاستثناءات. وهذا النظام فى الوصف اقتبسه الرومان من الإسكندرية فى قائمة المسرحيات الواحدة والعشرين الخاصة بالكاتب بلوتوس، ونجده أيضًا فى سويداس، ديوجينس وغيرهم. وسوف نستعرض هنا بعض النماذج من داخل كل قسم ونرى كيف كان القشم.

١ ـ الشعر الملحمى وغيره من الأشعار غير الدرامية

ـ تحت هوميروس الذى له أكثر من ألف لفافة فى المكتبة قسمت اللفافات إلى

أ ـ الأعمال الأصلية لهوميروس.

ب ـ الأعمال المنتحلة له والقصائد المشكوك فى نسبتها مع تعليقات حول صحتها.

ـ تحت هيسويد. استخدمت نفس الطريقة.

ـ تحت بندار. نجد تقسيمات فرعية بالأماكن.

ـ تحت سيمونيدس. جرى التقسيم على حسب نوع القصائد. ويعتقد أن كاليماخوس صنف كل قصيدة على حدة وفهرسها أيضًا.

٢ ـ الدراما

نجد تحت كل مؤلف نفس البيانات البيو ـ ببليوجرافية مع بعض المعلومات النقدية. ويعتقد بعض الببليوجرافيين أنه جرى ترتيب المؤلفين هنا زمنيًا وليس هجائيًا وداخل كل مؤلف على حسب تاريخ تأليف المسرحية لأن تواريخ المسرحيات أعطيت هنا. ومن

الطريف أن السياق الزمنى هنا كان ينبذ أحيانًا ويتبع الترتيب الهجائى.

٣ ـ القوانين

أورد كاليماخوس فى فهرسه المجلد الثالث وصفًا لقواعد القانون مثال ذلك: «القاعدة العامة هى أن الكل متساوون أمام القانون والعدل يطبق على الجميع». وهذه القاعدة القانونية تقع فى ثلاثمائة وثلاثة وعشرين سطراً.

٤ ـ الفلسفة

لم تصلنا أية قطع عن موضوع الفلسفة فى فهرس كاليماخوس ولكن وصلتنا بعض قوائم مفصلة نقلها هيرميبوس من سميرنا الذى يعتقد أنه كان تلميذ كاليماخوس ومساعده فى المكتبة وقد عمل معه فى إعداد الفهارس، وعندما توجد قوائم ترجع إلى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد فإنها ولابد وأن تكون قد استقيت من فهارس كاليماخوس. ولقد كان هيرميبوس باحثاً فى المتحف وأصبح كاتباً متميزاً وله كتاب مرموق فى التراجم هو «سير الفلاسفة والمؤرخين والشعراء» يعتقد البعض أنه أسس بلاشك على البيانات البيوجرافية التى جاءت فى فهارس كاليماخوس، وجاء فيه بسير كاملة لهم ومن ثم عمل كتاباً عظيماً مفصلاً ظل يرجع إليه حتى وقت الأباطرة الرومان. ويرى بعض الثقاة أن القائمة الهجائية لكتابات ثيوفراستوس والتى تضمنها عمل ديوجينس لايريتوس إنما ترجع إلى فهارس كاليماخوس عبر هيرميبيس.

٥ ـ التاريخ

ليست لدينا معلومات كثيرة عن قسم المؤرخين فى فهارس كاليماخوس ولم تصلنا أى قطع مباشرة من هذا الفهرس ولا قوائم مطولة غير مباشرة عن هذا القسم، وربما كان ذلك بسبب أن المؤرخين القدامى لم يكتبوا كتباً كثيرة مقارنة بكُتَّاب الشعر والخطباء؛ والنماذج القليلة التى وصلتنا مرتبة هجائياً. ومن المدهش أن نشير إلى أن عناوين كتب المؤرخين القدماء لم تكن ثابتة وكانت تلك الكتب تعرف بمؤلفها أكثر مما تعرف بعناوين محددة لها كما حدث فى حالة هيرودوت وثيوكيديدس وغيرهما.

٦ ـ الخطابة

فى هذا القسم رتب الخطباء هجائياً بأسمائهم وتحت كل خطيب أدرجت الخطبة بعنوانها وإن لم يكن لها عنوان رسمى أعطى لها عنوان من قبل المفهرس. ويبدو أن الخطب تحت كل خطيب قُسِّمت على حسب الأغراض مثل: خطب رسمية، سياسية، الحكم، قانونية، مهنية، مدنية أو على حسب المناسبات. ويعزى إلى كاليماخوس نفسه أنه هو الذى رتب خطب ديموثينس وقد وصلنا الترتيب الأصلى لها فى فهارس كاليماخوس عبر مصادر أخرى.

٧ ـ الطب

لم تصلنا هنا أيضاً قوائم مطولة أو قطع مباشرة؛ ولكن قام هيسكيوس بإعداد قائمة ببليوجرافية استندت فى تصنيفها على فهارس كاليماخوس وجاء الطب فى تلك القائمة رقم ٧. وهذه القائمة كانت مصدراً لكثير من القوائم التى تلتها لعدة قرون، ربما حتى القرن العاشر الميلادى إذ يذكر الثقاة أن سويداس ربما يكون قد اعتمد عليها فى جانب من معجمه الذى أعده فى ذلك القرن.

٨ ـ العلوم الرياضية

لم تصلنا أية معلومات محددة عن قسم العلوم الرياضية فى فهارس كاليماخوس ولكن يعتقد أنه قد خصص لها قسم رئيسى نظرًا للاهتمام الكبير بها فى الفكر اليونانى والهللينى. ونفس الشىء حدث فى فهارس أريستوفانيس البيزنطى.

٩ ـ العلوم الطبيعية

لم تصلنا كذلك معلومات مؤكدة عن العلوم الطبيعية أى العلوم البحتة، ولكن نظراً لوجود إنتاج فكرى غزير فى هذه المجالات فإن من الطبيعى أن نعتقد بوجود قسم رئيسى فى تصنيف كاليماخوس يتعلق بهذه العلوم؛ خاصة وأن أكاديمية الإسكندرية (المتحف) لم تكن تحفل كثيراً بالفلسفة وإنما انصب اهتمامها الرئيسى حول دراسات العلوم الطبيعية والطب وعلم اللغة والشعر.

١٠ - المتفرقات

ذكرت من قبل أن المتفرقات كانت من الأقسام الرئيسية التى وصلتنا منها قطع مباشرة من فهارس كاليماخوس. وقد رتب المؤلفون فى هذا القسم ترتيبًا هجائيًا. أما المختلط منها فقد قسم إلى مجالات موضوعية وداخل كل مجال رتبت الأعمال هجائيًا. وقد نقل أثينايوس نماذج طيبة من هذا القسم. ونقتطع منها المثال الآتى:

[هناك كتاب كتبه كايريفون سجله كاليماخوس فى قائمة المتفرقات وكتب عنه ما يلى؛ المؤلفون عن الولائم: كايريفون. أهدى إلى بود ثم يرفق بعد ذلك مباشرة بداية النص «طالما أنك قد دعوتنى» ثم يضيف الحجم «فى ثلاثمائة وخمسة وسبعين سطرًا».

وليست ببعيد عن شعبة الولائم والمآدب فى قسم المتفرقات نصادف شعبة عن كتب الطهى، وحيث أدرج قائمة هجائية بأسماء مؤلفى كتب الحلويات.

يقول إدوارد ألكسندر بارسونز أن فهارس كاليماخوس كانت أعظم فهارس مكتبية أنجزتها الحضارة الغربية. ولقد تضمنت فى نسختها الأصلية أساسيات الفهرسة الحديثة واستحق صاحبها كاليماخوس أن يلقب بأبى البيليوجرافيا. وككل الجهود الفكرية العظيمة التى جادت عندهم أرسى الإغريق قواعد الفهرسة وأسس التصنيف التى أثرت بطريقة أو بأخرى فى قواعد الفهرسة ونظم التصنيف الحالية. ولابد وأن نقر بأن قوائم كاليماخوس لم تكن مجرد فهارس، لقد كانت كما أشرت من قبل ببليوجرافية عالمية أعدها أكبر ببلوجرافى فى عصره. إن التصدى لتسجيل الإنتاج الفكرى المكتوب باليونانية وإعطاء نبذات بيوجرافية عن المؤلفين وبيانات ببليوجرافية عن أعمالهم منذ هوميروس حتى كاليماخوس وتقديم نبذات تحليلية ونقدية عن تلك الأعمال، إنما يستند فى حقيقة الأمر على رصيد ثرى وعميق من الفكر والعلم لدى كاليماخوس، جعله يستحق إلى جانب لقب أبى البيليوجرافيا لقب أبى التاريخ الفكرى.

وقد يقال بأن كاليماخوس قد مسح الإنتاج الفكرى اليونانى كما وجده أو كما تجمع

واقتنى فى مكتبة الإسكندرية مما فرض عليه قيوداً محددة، ولكننا نعلم أنه فى حصره لإنتاج المؤلف الواحد لم يكن يتقيد فقط بما هو متاح للمؤلف فى المكتبة بل تجاوز ذلك إلى مجموع إنتاج المؤلف على حسب علم كاليماخوس ورفاقه. ومن هنا فإن قوائم كاليماخوس تقف فى منطقة ما بين الفهرس والببليوجرافية والتاريخ الفكرى وإن كانت إلى الفهرس أقرب بطبيعة الحال. لقد انطوى الفهرس على معالجة علمية لكل مؤلف وأعماله قدر الإمكان وهى وإن لم تكن معالجة مطولة فى كل الأحوال إلا أنها كانت كافية ومشبعة وفتحت الباب واسعًا أمام من يريد التوغل فى العلم وحيث أن نصف العلم تنظيمه وبالتالى يكون كاليماخوس قد قام وحده بنصف العلم لجيله والأجيال التى تلت لعدة قرون. وتنبع أهمية هذا الفهرس أيضاً فى أنه يسير مع التعليمات التى أرساها أرسطو بين تلاميذه حيث قال لهم إنه قبل البدء فى أى بحث علمى لابد من جمع مصادره وتحليلها ونقدها قبل استقاء أى مادة علمية منها. ولقد خرج من بطن فهارس كاليماخوس أجيال من كُتَّاب التراجم، وأجيال من الببليوجرافيين وأجيال من مؤرخى الفكر، كما وجد فيه المؤرخون والحوليون معيناً لا ينضب من المعلومات الجاهزة المفيدة لهم. ونقف هنا على عينة فقط من المدارس التى خرجت من عباءة هذا العمل. فهناك مدرسة هيرميبوس، وهناك مدرسة سوتيون، وهناك مدرسة إراتوسثينز، وهناك ليسانديوس من كيرين، وهناك يوفوريون، وهناك استروس من كيرين.

لقد شعر أريستوفانيس البيزنطى مدير المكتبة وأحد عمالقة المتحف كما رأينا بضرورة إعداد إصدارة منقحة من فهارس كاليماخوس. ورغم أن الإصدارة الجديدة كانت عملاً أصلياً قام به شخص جديد له وزنه وثقله إلا أنه اعتمد على الأسس الأولى التى وضعها كاليماخوس. لقد ضاعت فهارس أريستوفانيس هى الأخرى.

إن خسارة البشرية فى فقد فهارس كاليماخوس هى خسارة فادحة بلاشك تسببت فى طمس معالم علوم العصور القديمة كلها ودفعت بالبشرية إلى ظلام العضور الوسطى ضمن عوامل أخرى كثيرة.

الفصل الرابع
مصير مكتبة الإسكندرية القديمة

كما كانت مكتبة الإسكندرية لغزًا فى قيامها كانت أيضاً لغزًا أكبر فى مصيرها ونهايتها. واختفاء مكتبة الإسكندرية إما أنه كان نتيجة تدمير عفوى أو متعمد، أو أنه كان نتيجة التبدد والشيخوخة التى تصيب المؤسسات كما تصيب البشر وخاصة بسبب التحولات التى تطرأ على الحياة. وهناك شبه إجماع على أن التحلل والتبدد والشيخوخة لم تتسبب فى اختفاء المكتبة. وإنما كانت نهايتها نهاية مفجعة ليس عن طريق السلب أو النهب أو الغرق أو المصادرة بل كانت تلك النهاية عن طريق الحريق، سواء كان ذلك الحرق عمدًا (الحرق) أو غير عمدى (الاحتراق). ومن العرض المستفيض فى الفصول السابقة جميعاً للظروف التى نشأت فيها المكتبة وشقت طريقها فيها يمكننا القول أنها ظلت مزدهرة على الأقل طيلة قرنين ونصف من الزمان تنمو وتكبر عقدًا بعد عقد وجيلاً بعد جيل. ولكن اعتباراً من النصف الثانى من القرن الأول قبل الميلاد يبدأ الحديث عن حرق المكتبة ومن خلال المصادر الكثيرة التى قرأناها وهى مصادر عربية مؤلفة وعربية مترجمة وعربية مكتوبة بالإنجليزية والفرنسية والألمانية، ومصادر أجنبية باليونانية أو الإنجليزية والفرنسية والألمانية، من هذه المصادر جميعاً نستخلص أن المكتبة احترقت على يد كل من أو على يد واحد من:

١ ـ يوليوس قيصر ٤٧ ق.م

٢ ـ أورليان ٢٧٣م

٣ ـ ثيودوسيوس وثيوفيلوس ٣٩١م

٤ ـ عمرو بن العاص ٦٤٢م

وبالتالى تكون المكتبة إما عمرت قرنين ونصف أو سبعة قرون أو عشرة قرون كلياً أو جزئيًا. وسوف نستعرض هنا كل حالة ما لها وما عليها.

أسلفنا فى فصل سابق أن يوليوس قيصر جاء إلى مصر وقضى نحو تسعة أشهر بين ٤٨ ـ ٤٧ ق.م. وكانت هناك حرب أهلية بين الرومان، وجاء قيصر إلى مصر لتعقب بومبيوس مناوئه الذى كان قد فر إلى مصر ولكنه كان قد لقى مصرعه قبيل وصول قيصر إليها. وعندما دخل يوليوس قيصر إلى الإسكندرية كان هناك صراع دموى بين كليوباترا وشقيقها بطليموس الثالث عشر على السلطة واتخذ يوليوس قيصر جانب كليوباترا التى حملت منه فى ذلك الوقت، وثار المصريون ثورة عامة ضد قيصر الذى دخل فى حرب مع بطليموس الثالث عشر لصالح كليوباترا، ولكن قيصر وجد نفسه محاصراً فى البر والبحر حيث تفوق عليه عدوه فى عدد السفن، وفى البر قطعت إمدادات المياه عن قواته وكادت تهلك عطشًا ولكى يخرج من هذا المأزق العسكرى عمد إلى إحراق كل السفن فى الميناء بما فى ذلك السفن المدنية التى كانت فى الترسانة البحرية التى أشرنا إليها فى فصل سابق وبعد ذلك أنزل قواته المحدودة إلى جزيرة فاروس للتحكم فى الموقف. ومن الجدير بالذكر أن قيصر آنذاك كان فى الثالثة والخمسين من عمره.

وتذكر المصادر بعد ذلك أن حريق السفن فى الميناء كان هائلاً وقد امتدت ألسنة اللهب من الميناء إلى ما حول الميناء من مبان فى حى البروكيوم الذى كان يتحلق الميناء وأتت عليها بما فى ذلك المكتبة والمتحف بطبيعة الحال ومعنى الامتداد هنا أن النار شبت فى المبانى، وربما تكون المكتبة أقرب للميناء من المتحف نفسه وربما العكس فلا نعرف على وجه اليقين أيهما كان أقرب للميناء من الثانى.

وقد كتب قيصر نفسه عن تلك الموقعة ولكنه لم يذكر شيئًا عن مدى الحريق وآثاره ولم يصلنا ما كتبه المؤرخ ليفيوس عن حرب الإسكندرية وزيارة قيصر، وأول كتابة مفصلة عن حقيقة ما حدث جاءت بعد أكثر من قرن (حوالى ١١٠ سنة) من وقوع الحريق فى ملحمة لوكانوس عن الحرب الأهلية الرومانية وهو الذى اتهمه نيرون بالخيانة والتآمر ضده وأعدمه سنة ٦٥م، كما أعدم الفيلسوف العظيم فى نفس السنة. وما قاله لوكانوس فى هذا الصدد يسير بالنص على النحو الآتى:

«انتشر الحريق وراء السفن إلى أجزاء أخرى من المدينة فاشتعلت المبانى المجاورة للبحر واندفعت ألسنة اللهب فوق أسطح المبانى فى سرعة الشهب» ولكن الرجل لم يشر إلى احتراق المكتبة أو المتحف حيث جاءت عبارته عامة.

وإذا كان أول نص عن الحريق قد جاء بعد مائة وعشرة أعوام من الموقعة فإن سائر النصوص التى وصفت الحريق وآثاره ترد بعد هذا النص الذى جاء به لوكانوس. ومن بين الآراء التى قيلت فى هذا الصدد:

١ - كتب سينيكا (٢ ق.م - ٦٥م) في منتصف القرن الأول الميلادى أن النار التى أضرمها قيصر فى الميناء أتت على أربعين ألف لفافة ويضيف الدكتور مصطفى العبادى من عنده (والراجح الآن أربعمائة ألف) وهو مالم يقل به سينيكا.

٢ - كتب بلوتارخ (٥٠ - ١٢٥م) المؤرخ اليونانى الذي عاش فى روما يقول على وجه التحديد أنه لما أوشك أسطول قيصر أن يقع فى أيدى أعدائه المصريين الذين حاصروه اضطر إلى درء الخطر بإشعال الحريق وانتشر الحريق من الترسانة البحرية ودمر المكتبة الكبرى. ويجب أن ندرك أن بلوتارخ كتب ذلك فى نهاية القرن الأول أو مطلع القرن الثانى الميلادى أى بعد مرور قرن ونصف تقريباً على الموقعة نفسها.

٣ - كتب أولوس جيليوس (١٢٣ - ١٦٩م) العالم اللغوى والناقد اللاتينى تحديداً يقول عن المكتبة: أنه فى زمن سابق جمعت أو نسخت كميات هائلة من الكتب على يد الملوك البطالمة وصلت إلى ما يقرب من سبعمائة ألف مجلد. ولكن هذه الكتب جميعاً احترقت فى حرب الإسكندرية الأولى ولم يكن ذلك عن قصد أو عمد.

٤ - ويشير المؤرخ كاسيوس الذى عاش نهاية القرن الثانى الميلادى وأوائل القرن الثالث الميلادى إلى حريق المكتبة فيؤكد ان النار شبت فى أماكن كثيرة كما أحرقت مخازن الغلال والكتب التى كانت قريبة من المرفأ. ويقال أن هذه الكتب

كانت كثيرة العدد عظيمة ويشير بعض الباحثين إلى أن كاسيوس قصد بذلك المكتبة الكبرى وهو مالم يقله الرجل تصريحًا أو تلميحًا.

٥ - ذكر المؤرخ إميانوس فيلنيوس الذى عاش القرن الرابع الميلادى بأنه كانت هناك فى الإسكندرية مكتبة ثمينة لا تقدر بثمن أجمع الكُتَّاب على أنها كانت تقتنى مالا يقل عن سبعمائة ألف كتاب، احترقت فى حرب الإسكندرية عندما دمرت المدينة زمن يوليوس قيصر.

هذه الروايات جميعاً تشير إلى احتراق مجموعات من الكتب خلال موقعة الإسكندرية وحرق السفن التى كانت موجودة فى الميناء والترسانة البحرية، وذلك على يد يوليوس قيصر سنة ٤٧ ق.م. ولما غضبت كليوباترا من ذلك أراد مارك أنطونيو أن يعوضها عن احتراق تلك المجموعات فحمل إليها مجموعات مكتبة برجاموم وكانت تقدر بمائتى ألف مجلد من بردى ورقوق على النحو الذى أشرت إليه سابقاً.

وعلى الجانب الآخر من الصورة يرى البعض أن الحريق لم يمتد ليشمل المكتبة الكبرى، وإن كانت هناك كتب احترقت فربما كان ذلك فى مخازن بالميناء حسب تعبير كاسيوس (مخازن الغلال والكتب). أى أن الربط بين الغلال والكتب يؤكد على أنها ليست المكتبة الكبرى بأى حال من الأحوال وربما تكون لفافات بردى معدة للتصدير إلى روما وتوهم البعض أنها كتب. ويرى هؤلاء الكُتَّاب أن الروايات السابقة يمكن تفنيدها على النحو الآتى:

أ - أن أقرب الروايات إلى زمن الموقعة والحريق يبعد عنه بأكثر من قرن كما رأينا وهى رواية سينيكا الذى حدد عدد اللفافات التى احترقت بأربعين ألفًا ومن ثم تكون فعلاً هى تلك الموجودة بالمخازن فى الميناء لأن النار لو امتدت إلى المكتبة الأم لالتهمت كل مقتنياتها. ومن جهة ثانية ربما تكون سائر الروايات التالية له قد أخذت عنه دون تمحيص أو تحليل أو روية.

ب - أنه مهما اشتعلت النار فى الأسطول ومهما امتد اللهب إلى الشاطىء فقد كان

كانت المكتبة والمتحف بمنأى عن ألسنة النار لأن المبانى كانت بالضرورة بعيدة عن الميناء وإن أتت النار على المبانى فلتكن مبانى الميناء نفسه ومخازنه وإن كان فيها كتب فليست بحال كتب المكتبة الكبرى أو غيرها إلا أن تكون كتباً معدة للتصدير أو واردة فى انتظار الفسح ولو كانت على ذمة المكتبة. ومهما كان عددها فلن يصل إلى سبعمائة ألف أو أربعمائة ألف حسبما ذكر وربما يكون رقم سينيكا أقرب إلى الصحة.

ومن جهة ثانية فإن مبانى الإسكندرية القديمة لم تكن لتحترق بسهولة على نحو ما قدمناه عن كيفية بناء المبانى بالحجر وخاصة تغطية الأسطح بالحجر ومن المؤكد أن مبنى المكتبة كان من الحجر الخالص الذى لا يمكن أن تخترقه ألسنة النيران القادمة من البحر بسهولة وبساطة.

ج - أن الروايات جميعاً أكدت على أن حريق المكتبة لم يكن عمداً، ونشير هنا أن قيصر لم يقصد غزو الإسكندرية وكانت زيارته للإسكندرية مجرد زيارة ودية وبالتالى فإن نية التخريب لم تكن واردة ولم يكن من أخلاق الرومان أو من سلوكيات قيصر أن يدمروا الكتب فهم الشعب الذى حافظ على كتب اليونان والثقافة اليونانية واستوعبها وبنى عليها حتى لقد قيل بأن اليونان المقهورة غزت فاتحها البربرى بعلمها وثقافتها.

د - لم تصلنا وثيقة واحدة تشير إلى أن مارك أنطونيو عندما حمل مكتبة برجاموم إلى كليوباترا هدية لها، أن ذلك كان بقصد التعويض عن مجموعات احترقت، ولماذا لا يكون الأمر تودداً لها وعربون محبة وصداقة.

ومن هنا فإن نسبة فرضية حرق المكتبة على زمن يوليوس قيصر لاتزيد على ١٠٪، وإن صحت رواية برجاموم فإنها ستكون إضافة إلى مجموعات المكتبة أو تكون قد استخدمت فى إنشاء مكتبة جديدة فى معبد قيصرون الذى أخذت كليوباترا فى إنشائه تكريماً لمارك أنطونيو وتخليداً لها والذى أكمله الامبراطور أوغسطوس. وقد ذكر فيلون

(٢٠ ق.م - ٥٤م) الفيلسوف اليهودى الذى ولد وعاش فى الإسكندرية أن من بين ما اشتمل عليه هذا المعبد الجديد مكتبة عظيمة الشأن ومن المرجح أن تكون نواتها هذه المجموعة.

أورليان

الحريق الثانى للإسكندرية وقع فى الحقبة المسيحية فى القرن الثالث الميلادى. وتقول المصادر بأن المكتبة ومدينة الإسكندرية بكل مؤسساتها على وجه العموم استمرت بعد حرب الإسكندرية الأولى تؤدى دورها ونشاطها العلمى والفكرى وإن لم يكن بنفس القدر من الازدهار فى القرون الثلاثة السابقة على الميلاد. بيد أن القرن الثالث الميلادى قد حمل للإسكندرية ويلات وأهوالاً وفتنًا ومحنًا واضطرابات ففى عام ٢١٦م قام الامبراطور كاراكاللا (حكم بين ٢١١ - ٢١٧م) بإراقة الدماء وإغلاق المحال العامة وأغلق المكتبة والمتحف وأوقف رواتب العاملين بهما وطرد العلماء والدارسين الأجانب من الإسكندرية وألغى جميع الامتيازات الممنوحة للجميع. وكانت تلك أول ضربة حقيقية توجه لهذا الصرح العلمى وإن لم يذكر عن الامبراطور أنه قد مس مجموعات المكتبة أو المتحف بسوء.

أما فى النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى فإننا يجب أن نتوقف أمام المد المسيحى فى مصر ونظرته إلى مكتبة الإسكندرية على أنها معقل للفكر الوثنى دون تمييز بين ماهو دينى وماهو علمانى من الكتب وكان الصراع بين المسيحيين وغيرهم ينعكس أثره بالضرورة أول ما ينعكس على الكتب والمكتبات ثم على سائر مؤسسات المدينة عموماً. وفى سنة ٢٦٥م تعرضت مدينة الإسكندرية لفتنة طائفية كبرى واضطرابات شديدة وخاصة فى حى البروكيوم الذى توجد فيه المكتبة الكبرى. وفى سنة ٢٧٣م قام الامبراطور أورليان (أورليانوس) بغزو الإسكندرية وأحدث بها دماراً شديداً فى نفس الحى الملكى مما أدى إلى فرار موظفى المكتبة والعلماء والباحثين إلى خارج المدينة ولجوء بعضهم إلى معبد السيرابيوم للاحتماء به. وفى سنة ٢٩٦م قام الامبراطور دقلديانوس بأكبر عملية اضطهاد للمسيحيين حيث كان يقتلهم ويعذبهم

ويمثل بهم ودمر بسبب ذلك جانباً كبيراً من المدينة وكان يأمر بإحراق الكتب دون تمييز وأعمل فيها النار دون شفقة. وربما يكون الامبراطور دقلديانوس قد عمد إلى حرق الكتب المسيحية ولكنه من الممكن أن يكون قد أتى على جانب من الكتب الأخرى فى المكتبة الأم. ولم يثبت لنا أنه حرق المكتبة نفسها أو المتحف فهما من تراث الوثنية وليس المسيحية.

المهم أنه لم يأت القرن الرابع الميلادى إلا وكانت الأضواء قد خفتت من حول المتحف والمكتبة وإن لم ينته دورهما تمامًا ويذكر البعض أن الموسيون قد تحول إلى مؤسسة تعليمية وليست بحثية وبالتالى ضعف دور المكتبة وانتقل النشاط الأكبر للبحث العلمى والقراءة إلى معبد السيرابيوم.

ثيودوسيوس وثيوفيلوس

فى القرن الرابع الميلادى اشتدت الحركة المسيحية واعتنقتها الدولة ديناً رسمياً لها على النحو الذى كشفنا عنه فى فصل سابق، وبدأ الصراع يحتدم وكان لابد للمسيحيين من أن ينتقموا ممن اضطهدوهم قبلاً ومحاربة الوثنية بل بلغوا من التعصب حد الانقسام فيما بينهم ازاء المسيحيين الذين رضوا بالاضطهاد واستسلموا له هل ترفضهم الكنيسة أو تقبل توبتهم وعودتهم إليها؟ وفى سنة ٣٦٦م كان التعصب المسيحى على أشده ويقال أنهم فى تلك السنة هجموا على معبد القيصرون وهدموه ودمروا مكتبته التى كانت كليوباترا قد أنشأتها من المجموعات التى يقال بأن مارك أنطونيو قدمها له من مكتبة برجاموم.

ومع انتشار المسيحية وتوسعها وزيادة الداخلين إليها يوماً بعد يوم توسعت حربها ضد الخصوم الوثنيين والفكر الوثنى ومصادره. وبعد إعلان المسيحية ديناً رسمياً للدولة أخذت المعابد الوثنية وكل ماهو وثنى معرض الآن للاضطهاد من جانب المسيحيين. وبقدر ما كان من قسوة واضطهاد للمسيحيين على يد دقلديانوس كان اضطهاد الوثنية والوثنيين ومعابدهم على يد الامبراطور ثيودوسيوس (٣٧٩ ـ ٣٩٥) فى جميع أنحاء الامبراطورية. ويقال أن هذا الامبراطور قد أصدر قراراً فى سنة ٣٩١م بتدمير جميع

المعابد الوثنية فى مدينة الإسكندرية. وكان فى الإسكندرية آنذاك الأسقف شديد التعصب ثيوفيلوس والذى يقال عنه أنه نجح فى الحصول على موافقة الامبراطور على تحويل ديونيسيوس إلى كنيسة ومارس كثيراً من أعمال العنف والتطرف ضد الوثنيين وأدوات الوثنية فى الإسكندرية، ولذلك هرع كثير من الناس الذين كانوا مايزالون على وثنيتهم إلى معبد السيرابيوم الذى كان كما قلت من قبل فوق تل عال وكان مبناه فى غاية الضخامة والفخامة والمتعة أشبه ما يكون بالقلعة المنيعة، وحاول هؤلاء القوم الاحتماء به أو الدفاع عنه ضد هجمات ثيوفيلوس وأتباعه.

ويقال أن ثيوفيلوس حتى يهجم على المعبد ويحطمه طلب مساعدة والى الإسكندرية وقائد الحامية الرومانية، ولكن المصادر تؤكد على أنهما رفضا أية مساعدة عسكرية فى هذا الشأن دون موافقة مباشرة من الامبراطور الرومانى وهو ما حدث حيث أصدر الامبراطور ثيودوسيوس قراره بتدمير معابد الإسكندرية على النحو السابق. ويقال أن ثيوفيلوس ذهب إلى المعبد فى حشد من أنصاره وقرأ القرار على الملأ ثم أخذ معوله وسدد الضربة الأولى لتمثال سيرابيس ثم اندفع وراءه حشد الأنصار وعاثوا فى المعبد فساداً وتدميراً ثم قرر ثيوفيلوس بعد أن تم تدمير المعبد إقامة كنيسة أو تحويل المبنى إلى كنيسة.

وقد رأت بعض المصادر أن عملية التدمير لم تصب سوى تمثال سيرابيس وبعض مظاهر الوثنية الواضحة فى أرجاء المعبد وربما بعض الكتابات الدينية الوثنية فى المكتبة وأن المبنى نفسه لم يدمر عن آخره وإلا فكيف يحول إلى كنيسة بين يوم وليلة، لأنه إذا كان قد هدم من أساسه فإن الأمر يتطلب وقتاً طويلاً فى ظل الحجارة الثقيلة والكتل الصخرية التى بنى منها المعبد. ومن هذا المنطلق ترى تلك المصادر أن مكتبة المعبد ربما تكون قد استمرت فى ظل الشكل الكنسى الجديد له ودخلت ولو بخسائر محدودة إلى القرن الخامس الميلادى وربما تكون فقط قد أغلقت فى وجه المستفيدين وطواها النسيان أو ربما تكون قد نقلت إلى مقبرة داخل الشكل الجديد للمعبد، وهذا القبو تحت الأرض كان مسألة مألوفة فى المعابد والكنائس القديمة؛ على النحو الذى قال به إميانوس

مارسيللينوس الذى زار الإسكندرية فى مطلع القرن الخامس وتحدث عن أوضاع المكتبات فى عموم الامبراطورية وما أصابها على يد المسيحيين وذكر من بينها «مكتبات أغلقت إلى الأبد كالقبور».

ورغم الصورة الظاهرة بأن المكتبة الأم (الكبرى) قد دمرت وخرجت من الوجود إما مع نهاية القرن الأول قبل الميلاد، أو مع نهاية القرن الثالث الميلادى وبأن مكتبة القيصرون التى حلت محل المكتبة الكبرى قد خرجت من الوجود فى منتصف القرن الرابع الميلادى؛ وبأن المكتبة الصغرى (الابنة) انتهت هى الأخرى وخرجت من الوجود فى نهاية القرن الرابع الميلادى أيضاً وبالتالى يكون الستار قد أسدل على مكتبة الإسكندرية القديمة درة مكتبات العالم القديم وتبدأ سحب العصور الوسطى المظلمة تطل على العالم كله؛ رغم هذه الصورة الظاهرة ورغم كل الحديث عن الحرائق وعمليات التخريب والتدمير يرى بعض الباحثين أن المكتبة الأم قد استمرت بطريقة أو بأخرى بعد القرن الرابع الميلادى ولم تغلق أبوابها كلية ولم تفن عن آخرها؛ وربما تكون قد خبت جذوتها وخفتت شعلتها ولكن بقى فيها بالضرورة شىء ينتفع به، كما يؤكدون على أن المكتبتين الآخريين فى القيصرون والسيرابيوم استمرا كذلك ولكن على نحو آخر. ويؤكد هؤلاء الباحثون على الحقائق الآتية:

١ ـ أن مجموعات كبيرة من الكتب البردية قد نجت من كل هذه الأهوال لأن الأباطرة الرومان كانوا شديدى الحرص على العلم ومصادره ولم يعمدوا أبدًا إلى حريق أو تخريب مقصود للمكتبات، بل أفادوا منها فوائد عظيمة ولو باستغلال الأسرى والعبيد اليونانيين المثقفين على النحو الذى صادفناه من قبل، وهى سمات رومانية اعترف بها جل المؤرخين، وإن لم يهتم الأباطرة الرومان بالإسكندرية نفسها كمركز لفكر العالم، وحاولوا جهدهم نقل هذا المركز إلى روما عندما أصبحوا فى وضع يسمح لهم بذلك.

٢ ـ أن مجموعات مكتبة برجاموم التى نقلت إلى الإسكندرية، سواء استقرت فى المكتبة الكبرى أو مكتبة معبد القيصرون كانت تتألف أساسًا من رقوق لأننا نعلم

أن برجاموم قد طورت صناعة الرقوق بعد توقف تصدير ورق البردى إليها زمن الأتاليين. والرقوق تستعصى على الحريق العادى ولا تحترق إلا بعد سكب زيوت معينة عليها. ومن هنا فسواء كانت هذه المجموعات بالمكتبة الأم أو بمكتبة القيصرون فإنها لابد وقد استمرت بعد القرن الرابع الميلادى؛ والقول بحريقها فيه تجاوز.

٣ ـ أن رواية استصدار المسيحيين لأمر من الامبراطور بهدم معبد السيرابيوم وحرقه وتخريبه، قول فيه تجاوز شديد أيضاً وتضارب فكيف يتحول المعبد الوثنى بعد تخريبه إلى كنيسة. إن التحويل يتم على مبنى قائم على نحو ما حدث فى كنيسة أياصوفيا عندما حولت إلى مسجد. ثم كيف يتم حمل الكتب الموجودة فى مكتبة المعبد إلى روما والقسطنطينية بعد أن تكون قد احترقت وخربت. أغلب ظنى أنه كى يستقيم الأمر، أن قرار الامبراطور كان بتحويل المعبد إلى كنيسة دون هدم أو تخريب أو تدمير وأقصى ما هناك هو إتلاف الأصنام التى كانت قائمة فيه أى تماثيل آلهة الوثنية المصرية واليونانية على السواء. وربما كان القرار أيضاً باستبعاد الكتب الدينية الوثنية وأن تحمل منه بعض الكتب إلى روما والقسطنطينية وليس كل الكتب. ويكون معنى هذا أن مكتبة معبد السيرابيوم ربما تكون قد نقحت ونقيت واستبعد منها ما استبعد ونقل منها ما نقل ولكن مع ذلك بقى فيها شىء يوائم الشكل الجديد لدار العبادة أى الكنيسة وبالتالى تكون المكتبة أو هذا الشطر من مكتبة الإسكندرية قد عاش هو الآخر بطريقة أو بأخرى بعد القرن الرابع الميلادى. ويكون المسلمون عندما دخلوا الإسكندرية فى منتصف القرن السابع الميلادى قد وجدوا فيها مكتبات أو بقايا من مكتبة الإسكندرية القديمة.

عمرو بن العاص

ثمة رواية أخرى تنسب إلى العرب المسلمين حرق مكتبة الإسكندرية عندما دخلوها بقيادة عمرو بن العاص سنة ٦٤٢م فاتحًا لمصر. وقد قال بهذه الرواية عرب مسلمون

قدامى كما قال بها عرب مسلمون وعرب مسيحيون حاليون؛ وقال بها أجانب مستشرقون وغير مستشرقين. كذلك فقد نفاها وفندها عرب وأجانب حاليون. وفى كلتا الحالتين ليس لدينا أدلة نقلية مادية وكل ما لدينا أدلة عقلية استنباطية. وقد تناقلت المصادر العربية بالذات الرواية مصدرًا عن مصدر ولم يحاول أيها التوقف والتحليل.

ولسوف نحاول هنا الوقوف طويلاً أمام هذه الرواية لأنها تمس العرب والمسلمين مسًا مباشرًا. تقول هذه الرواية بأن عمرو بن العاص عندما دخل الإسكندرية قابله عالم سكندرى يسمى يحيى النحوى (الغراماطيقى أو الجراماتيكى) وكان أسقفًا فى كنيسة الإسكندرية ناقمًا على مذهب التثليث الذى أفسد العقيدة المسيحية على النحو الذى أشرت إليه فى فصل سابق ورفض رفضاً قاطعًا أن يكون الله الواحد الأحد ثلاثة ولهذا طرده المسيحيون من الكنيسة وأسقطوه من المنزلة الدينية التى كان فيها. وربما لهذا السبب أعجب به عمرو بن العاص وأكرمه وأحله منزلة طيبة، وكان عمرو بن العاص يحسن الاستماع ويعرف أقدار الرجال فقربه منه ولازمه يحيى النحوى. وبعد أن أتم عمرو فتح المدينة والسيطرة على مرافقها قال له يحيى فى يوم من الأيام ما نصه:

[إنك قد أحطت بحواصل الإسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فمالك به انتفاع فلا نعارضك فيه ومالا انتفاع لك به فنحن أولى به، فأمر بالإفراج عنه. فسأله عمرو وما الذى تحتاة إليه؟ فقال كتب الحكمة التى فى الخزائن الملكية وقد أوقعت الحوطة عليها ونحن محتاجون إليها ولا نفع لكم بها. فقال له عمرو: ومن جمع هذه الكتب وما قصتها؟ فقال له يحيى: إن بطلوماؤوس فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية، لما ملك حبب إليه العلم والعلماء وفحص عن كتب العلم وأمر بجمعها أوفرد لها خزائن فجمعت وولى أمرها رجلاً يعرف بزميرة (ديمتريوس) وتقدم إليه بالاجتهاد فى جمعها وتحصيلها والمبالغه فى أثمانها وترغيب تجارها فى نقلها ففعل ذلك فاجتمع من ذلك عدة أربعة وخمسون ألف كتاب ومائة وعشرون كتابًا. ولما علم الملك باجتماعها وتحقق عدتها قال لزميرة أترى بقى فى الأرض من كتب العلوم مالم

يكن عندنا؟ فقال له زميرة قد بقى فى الدنيا شىء كثير من السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وباب والموصل وعند الروم. فعجب الملك من ذلك وقال له دم على التحصيل فلم يزل على ذلك إلى أن مات الملك. وهذه الكتب لم تزل محفوظة محروسة يراعيها كل من يلى الأمر من الملوك وأتباعهم إلى وقتنا هذا.

[فاستكثر عمرو ما ذكر يحيى وعجب منه وقال لا يمكننى أن آمر فيها بأمر إلا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكتب إلى عمر وعرفه قول يحيى الذى ذكرناه واستأذنه ما الذى يصنع فيها فورد عليه كتاب عمر الذى يقول فيه: وأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غنى وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها.

[فشرع عمرو بن العاص فى تفرقتها على حمامات الإسكندرية وإحراقها فى مواقدها وذكرت عدة الحمامات يومئذ وانصبتها فذكروا أنها استنفدت فى ستة أشهر فاسمع واعجب].

وأول حلقة فى هذه الرواية وصلتنا من عبد اللطيف البغدادى (وهو موفق الدين عبد اللطيف بن يوسف بن محمد بن على الشافعى) المولود سنة ٥٥٧هـ والمتوفى سنة ٦٢٢هـ. وكان هو ووالده من أعوان صلاح الدين الأيوبى.

تلك الرواية بنفس النص تواترت فى مصادر مختلفة بعد البغدادى فقد عاصره وردد نفس القصة القفطى (وهو جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف بن ابراهيم القفطى) المولود فى قفط بصعيد مصر سنة ٥٦٥هـ وتولى منصب القضاء فى حلب وعرف هناك بالقاضى الأكرم وقد توفى فى حلب ٦٤٦هـ.

وربما يكون الحلقة الثالثة فى هذه الرواية هو أبو الفرج المالطى (أبو الفرج ابن هارون المالطى الشهير بابن العبرى) المولود سنة وفاة البغدادى ٦٢٢هـ والمتوفى سنة ٦٨٤هـ. ثم نقلت هذه الرواية بشحمها ولحمها بعد هؤلاء عن طريق مؤلفين تالين لهم من أمثال المقريزى وحاجى خليفة من القدماء وجورجى زيدان من المحدثين.

وقد تكون هناك مصادر أكبر من البغدادى والقفطى وابن العبرى حيث أن ما وصلنا من مصادر ترجع إلى القرن السادس والسابع وبينهما وبداية القرن الأول الهجرى ما بين خمسمائة وستمائة سنة ولابد من أن تكون هناك سلسلة من المصادر السابقة عليهما تصلهما بالقرن الأول أو الثانى الهجرى القريبين من الحدث. فالعقل يرفض تمامًا أن تكون هذه الرواية مختلفة كلية أو أن تكون نبتت من فراغ تماماً اعتبارًا من القرن السادس خاصة إقحام اسم يحيى النحوى فيها. ومن المحتمل أن تكون المصادر السابقة عليهما قد احترقت فيما احترق من مصادر المكتبات العربية المختلفة.

وعبد اللطيف البغدادى طاف بمصر وكتب عن آثارها وخططها وذكر حرق العرب لمكتبة الإسكندرية وكانت زيارته لها فى نهاية القرن السادس الهجرى. وهو يقول حول هذا الموضوع فى كتابه عن تلك الزيارة كتاب: **الإفادة والاعتبار والأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر** «ورأيت أيضاً حول عمود السوارى من هذه الأعمدة بقايا صالحة بعضها صحيح وبعضها مكسور ويظهر من حالها أنها كانت مسقوفة والأعمدة تحمل السقف وعمود السوارى عليه قبة هو حاملها، وأرى أنه الرواق الذى كان يدرس فيه أرسطو طاليس وشيعته من بعده وأنه دار العلم التى بناها الإسكندر حين بنى مدينته، وفيها كانت خزانة الكتب التى أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضى الله عنه».

وعندما يذكر رحالة مثل البغدادى تلك العبارة المختصرة عن مكتبة الإسكندرية وقد جاءت عرضاً فلابد أن القصة كانت معروفة قبله ولذلك أثبتها على أساس الاستطراد وأن الشىء بالشىء يذكر فقط. وهذا يؤكد ما سبق أن أكدت عليه وهو وجود مصادر سابقة على البغدادى فى سلسلة متلاحقة.

والقفطى الذى عاصر البغدادى ولا نقول أخذ منه ردد نفس الرواية بتفصيل كاف يحتمل بالضرورة أنه نقله من مصدر سابق عليهما معًا. وقد جاءت هذه الرواية عند القفطى فى معجم تراجم الفلاسفة الذى وضعه بعنوان «تاريخ الحكماء» منه نسخة خطية فى دار الكتب المصرية حديثة النسخ نسبيًا (١١٩٧هـ أى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى). وقد سجل تفاصيل القصة عند ترجمته ليحيى النحوى. ومن الواضح فى

كلام القفطى والحوار الذى دار أنه ينطوى على بذرة الحقيقة الكامنة وراء كل أسطورة وأنه لم يخترع هذه القصة من فراغ وإنما نقله عن مصدر سابق عليه مما يؤكد ما ذهبنا إليه من قبل ولكن المشكلة الأساسية هنا هى أن نص القفطى المفصل هذا ـ وقد يكون مختصراً أو ملخصاً للنصوص السابقة عليه ـ أصبح الأساس لكل من أتى بعده فى هذه الجزئية. وعلى سبيل المثال فإن أبا الفرج ابن هارون الملطى الشهير بابن العبرى مؤلف كتاب «تاريخ مختصر الدول» نقل عن القفطى نقلاً حرفياً ولكنه لخص نصه قليلاً. ومما يذكر فى هذا الصدد أن ابن العبرى كما يبدو من اسم الشهر قد تحدر من أصل يهودى ولكن أباه تنصر وشب هو على النصرانية وارتقى فى رتب الإكليروس إلى الأسقفية ثم ألف تاريخًا فى السريانية استخرجه من كتب يونانية وفارسية وعربية وسريانية واستخلص من هذا الكتاب المؤلف بالسريانية كتاباً كتبه بالعربية سماه (مختصر الدول) كما سبقت الإشارة وهو الكتاب الذى وصلنا وفيه تلك الرواية. ومن المؤسف أن يعتبر بعض الكُتَّاب أن ابن العبرى هو أول من قال بهذه الرواية ويبنون دفوعهم على هذا الأساس.

المقريزى فى خططه نقل هذه الرواية حرفياً وبنفس الإسهاب. وحاجى خليفة فى كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون، أشار إلى الرواية على وجه الإجمال فليس فى كتابه مجال للإسهاب وهو لم يذكر مدينة الإسكندرية على وجه التحديد إنما أشار إلى أن «العرب فى صدر الإسلام لم يقنعوا بشىء من العلوم إلا بلغتهم وشريعتهم. . . ويروى أنهم أحرقوا ما وجدوه من الكتب فى فتوحات البلدان».

وفى هذه العبارة تلخيص للموقف كله وتلميح إلى أمر عمر بن الخطاب بحرقها وسبب ذلك أو تبرير له. وكيف أن هذا السلوك لم يكن خاصًا بمكتبة الإسكندرية وحدها وإنما كان سلوكاً عربياً عاماً إزاء كتب الأمم المفتوحة.

وقد جاء جورجى زيدان فى نهاية القرن التاسع عشر الميلادى وبداية القرن العشرين (الرابع عشر الهجرى) وفتح الملف العربى من جديد. وتردد بين مكذب لهذه الرواية أولاً ثم مصدق لها بعد تحليل وتدقيق. وقد ركز همه على تبرئة أبى الفرج بن هارون الملطى (ابن العبرى) حيث اتهمه البعض بأنه أول من اختلق هذه الرواية تعصبًا ضد

الإسلام وتحيزاً للمسيحية التى ألصقت بها هذه التهمة كما ألمحنا إلى ذلك من قبل. وقد جاء حديث جورجى زيدان عن تلك الرواية وتحليلاته فى نحو سبع صفحات من الجزء الثالث من كتابه «تاريخ التمدن الإسلامى».

هذا على الجانب العربى أما على الجانب الغربى فقد رأينا كيف أن تريتزيس ذكر خبر المكتبة فى القرن الثانى عشر فى الحاشية التى تحدثنا عنها؛ إلا أن قصة حرق المكتبة لم تتم إثارته فى أوروبا إلا فى القرن السابع عشر وما بعده وتناولها كُتَّاب عديدون ما بين مؤيد ومعارض لحرق العرب لها، مما ليس هنا مجال لتقصيه وسرده. ولكن المشكلة الحقيقية أن أول من قال بحرق المكتبة على يد العرب المسلمين هم عرب ومسلمون ولو لم ترد هذه القصة فى المصادر العربية لما فتح هذا الملف أيضاً ولانطوت صفحة تلك المكتبة كما انطوت صفحات مكتبات أخرى مثل مكتبة رمسيس الثانى وغيرها.

المهم أننا أمام رواية تقول بأن العرب المسلمين قد أحرقوا مكتبة الإسكندرية فهل هى رواية صادقة، أم رواية كاذبة مختلقة من أساسها لسبب أو لآخر؟ هناك من يؤيد تلك الرواية وله دفوعه وأسانيده، وهناك من ينفيها ويكذبها وله أيضاً دفوعه وأسانيده. وفى كلتا الحالتين هى أدلة عقلية استنباطية ليس من بينها دليل نقلى مادى واحد.

وقبل استعراض دفوع وأسانيد كل من الفريقين أود أن أبرز ثلاث حقائق هامة:

الأولى: أن الرد الذى رد به عمر بن الخطاب على عمرو بن العاص عندما سأله عما يفعل بمجموعات الكتب فى المكتبة وهو «فأما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنها غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها فتقدم بإعدامها». هذا الرد جاءت فحواه أيضًا فى تبرير المسيحيين حرق كتب الوثنية فى نفس مكتبة الإسكندرية فقد ورد فى أعمال الرسل أن الكتاب المقدس فيه الكفاية والغنى عن أى كتاب آخر «إذا كنت تريد تاريخًا فعليك بسفر الملوك وإذا أردت البلاغة فعليك بسفر الأنبياء وإذا كنت تريد الشعر فعليك بالمزامير وإذا أردت فلكاً أو قانوناً أو أخلاقًا فقانون الربِ المجيد».

الثانية: أن العرب المسلمين قد عرفوا فى القرون الأولى للهجرة بوجود مكتبة الإسكندرية فقد أورد ابن النديم فى «الفهرست» معلومات عن هذه المكتبة وعن يحيى النحوى فى أكثر من موضع ولكن الموضع الألصق بالمكتبة نجده تحت أخبار الفلاسفة الطبيعيين عند حديثه عن فيلسوف اسمه إسحق الراهب الذى كان يبحث فى فلسفة اليونان وتاريخهم وأخبارهم وكذلك أيضًا تاريخ الرومان وآدابهم ومن جملة ما ذكره عنهم خبر إنشاء مكتبة الإسكندرية على يد زميرة ونص ما ذكره ابن النديم فى هذا الصدد لا يخرج عما ذكره ابن القفطى «إن بطولوماوس فيلادلفوس من ملوك الإسكندرية لما ملك بحث عن كتب العلم وولى أمرها رجلاً يعرف بزميرة فجمع من ذلك على ما حكى أربعة وخمسين ألف كتاب ومائة وعشرين وقال له: أيها الملك قد بقى فى الدنيا شىء كثير فى السند والهند وفارس وجرجان والأرمان وبابل والموصل وعند الروم». وإذا كان ابن القفطى قد استخدم نفس العبارات ولكنه أفاض فيها وابن النديم لم يذكر شيئًا عن حريق المكتبة فاغلب ظنى لم يأخذ عن ابن النديم وإنما من مصدر آخر ربما يكون ابن النديم نفسه قد استعمله حيث كانت مكتبة بيت الحكمة فى بغداد ماتزال عامرة بالمصادر سواء بالنسبة لابن النديم فى القرن الرابع الهجرى أو ابن القفطى وغيره فيما قبل منتصف القرن السابع الهجرى حين أحرقها التتار وأغرقوها. ويخالجنى الظن بأن العرب عرفوا خبر مكتبة الإسكندرية فى القرن الثانى والثالث للهجرة من المصادر اليونانية التى توسعوا فى الحصول عليها وترجمتها إلى العربية .

الثالثة: أن العرب المسلمين عرفوا يحيى النحوى كما عرفوا مكتبة الإسكندرية وربما ترجموا له كتباً فى القرنين الثانى والثالث للهجرة وقد كتب عنه ابن النديم أيضاً فى الفهرست أى قبل ابن القفطى بثلاثة قرون تقريباً وقد ذكر عنه: «كان يحيى تلميذ شاوارى وكان أسقفًا فى بعض الكنائس بمصر ويعتقد مذهب النصارى اليعقوبيةْ ثم رجع عما يعتقده النصارى فى التثليث فاجتمعت الأساقفة وناظرته فغلبهم واستعطفته وآنسته وسألته الرجوع عما هو عليه وترك إظهاره فأقام على ما كان عليه وأبى أن يرجع فأسقطوه وعاش إلى أن فتحت مصر على يدى عمرو بن العاص فدخل إليه وأكرمه ورأى له موضعاً، وقد فسر أرسطليس. وقد ذكرت ما فسره فى موضعه وله

من الكتب كتاب الرد على برقلس، ثمان عشرة مقالة؛ كتاب فى أن كل جسم متناه فقوته متناهية، مقالة؛ كتب الرد على أرسطاليس، ست مقالات؛ كتاب تفسير مابال لأرسطاليس العاشر، مقالة يرد فيها على نسطورس؛ كتاب يرد فيه على قوم لا يعترفون، مقالتان، ومقالة أخرى يرد فيها على قوم آخر. وله تفسير شيء من كتب جالينوس نحن نذكر ذلك عند ذكرنا جالينوس. وذكر يحيى النحوى فى المقالة الرابعة من تفسيره لكتاب السماع الطبيعى فى الكلام فى الزمان مثلاً قال فيه: مثل سنتنا هذه وهى سنة ثلاث وأربعين وثلاثمائة لدقلطيانوس القبطى. وهذا يدل أن بيننا وبين يحيى النحوى ثلاثمائة سنة ونيف. وقد يجوز أن يكون فسر هذا الكتاب فى صدر عمره لأنه كان فى أيام عمرو بن العاص».

إذا وضعنا تلك الحقائق الثلاث والقصة كاملة حسب سياقها الذى أتينا عليه فلنستعرض الآراء المؤيدة والمعارضة لهذه الرواية.

أما الذين ينفون عن العرب أنهم حرقوا المكتبة ويرون أنهم أبرياء من دم هذه المكتبة فإنهم يسوقون الدفوع الآتية فى هذا الصدد ومنهم عرب وأجانب:

١ ـ أن العرب عندما دخلوا الإسكندرية لم تكن أى من المكتبات الأم أو الابنة أو حتى مكتبة معبد القيصرون موجودة، ولابد أنها جميعاً قد خرجت من الوجود فى قرون سابقة على دخول العرب مصر. ولو كانت تلك المكتبات موجودة وتمثل معلمًا من معالم الإسكندرية لذكرها الرحالة الذين زاروا الإسكندرية قبل الفتح العربى. وكذلك لذكرها المؤرخون العرب المعاصرون للفتوحات الإسلامية من أمثال البلاذرى وابن عبد الحكم واليعقوبى. ولو كانت هذه المكتبة موجودة عند الفتح فإن الهدنة التى عقدت بين المسلمين والمقوقس عظيم القبط فى شروط الصلح كانت تتيح للروم نقلها إذا أرادوا، ذلك أنه سمح لهم بنقل المتاع والأموال فى مدة الهدنة وكانت تلك المدة طويلة بما يكفى نقل المكتبة وغيرها.

٢ ـ أن يحيى النحوى الذى تذكر الرواية أنه أكبر عنصر فيها لم يكن موجوداً على قيد

الحياة عندما دخل عمرو بن العاص المدينة وإن كان حياً لكان عمره يزيد عن مائة وعشرين عامًا. وقد ذكر أ. ج. بتلر أن هذا الشخص هو يوحنا فيلوبونوس وقد عاش في عصر الامبراطور جستنيان وكتب ضد المذهب النسطورى حوالى ٥٤٠م ويكاد يكون مستحيلاً أنه عاش حتى الفتح العربى لمصر ٦٤٢م. ومن ثم فإن الرواية تنقض من أساسها.

٣ ـ أن المؤرخ الأديب يوحنا النيقى (النايقوس) عاصر الفتح العربى لمصر وتحدث عن وقائع ذلك الفتح بالتفصيل دون أن يذكر شيئًا عن إحراق المكتبة ومن غير المعقول الا يتوقف عنده، وقد توقف عند أشياء أقل أهمية.

٤ ـ لقد زار المؤرخان يوحنا مسكويه وسفرنيوس مصر قبل الفتح الاسلامى وتحدثا كثيرًا عن المكتبات فى الإسكندرية ولم يذكرا شيئًا عن المكتبة الأم والمكتبة الابنة ولو كانت أيهما على قيد الحياة لذاكرها لأهميتها وخطورتها حيث تكون فى ذلك الوقت عمرت ألف عام.

٥ ـ أن مكتبة الإسكندرية لو كانت موجودة على قيد الحياة عند فتح العرب لمصر لكان عمرها يقترب من الألف سنة. وهذا ضد طبيعة الأشياء وخاصة فى ظل الظروف المضطربة التى عاشتها مدينة الإسكندرية وبالذات منذ القرن الأول بعد الميلاد. أضف إلى ذلك الظروف المناخية طوال تلك الألفية والتى كان من الضرورى أن تفت فى عضد أوراق البردى وخاصة فى ظل الإهمال وانعدام الصيانة. وبالتالى فإن المكتبة لابد وأن تكون قد شاخت قبل دخول العرب مصر.

٦ ـ أنه لو صحت رواية أن المكتبة كانت موجودة عند دخول العرب إلى الإسكندرية لكانت معظم مجموعاتها من الرقوق لسببين أولهما نقل مجموعة المائتى ألف مجلد من برجاموم وقد أشرنا أنها كانت أساسًا من الرقوق وثانيهما الحركة النسخية الكبرى التى حدثت فى القرن الثالث والرابع للميلاد حيث تم إعادة نسخ أو تحميل المادة العلمية التى كانت موجودة على البردى على رقوق أى من وسيط

هش إلى وسيط أقوى وأكثر تحملاً. ومن هنا فإن هذه الرقوق كانت تستعصى على الحريق إلا في ظروف خاصة لا يمكن لعمرو بن العاص في تلك الفترة أن يتعامل معها.

٧ ـ أن الإسلام يحض على العلم وتكريم أهله والحفاظ على أدواته وهناك من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأقوال المأثورة ما يؤكد ذلك. وقد حرص الحكام المسلمون على إنشاء المكتبات وتشجيع حركة النشر والترجمة ومكافأة المؤلفين والمترجمين بمثل وزن أوراقهم ذهباً. وأن حرق المكتبات والكتب ضد مبادىء الإسلام.

تلك هى أهم دفوع الذين ردوا على الشبهات التى حامت حول العرب المسلمين فى حرق مكتبة الإسكندرية.

أما الذين قالوا بحرق العرب للمكتبة فإنهم يبنون نظريتهم على الوجوه الآتية:

١ ـ أن يحيى النحوى (الغراماطيقى) كان حياً عندما دخل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية وأنه كان فى سن الشباب حسب التحليل الذى قدمه ابن النديم نفسه حيث قال ما نصه «وهذا يدل أن بيننا وبين يحيى النحوى ثلاثمائة سنة ونيف. وقد يجوز أن يكون فسر هذا الكتاب فى صدر عمره لأنه كان فى أيام عمرو بن العاص». وربما لا يكون يحيى الوارد ذكره فى الرواية ليس هو يوحنا فيلوبونس الذى كان ضد عقيدة التثليث والذى تتبع بتلر آثاره. ذلك أن اسم يوحنا (يحيى) كان منتشراً فى تلك الفترة وصفة النحوى كانت تطلق على اللغويين والأدباء وليست جزءاً من الاسم، وبالتالى ربما يكون يحيى آخر غير الذى عناه بتلر والذى نقض به الرواية. ولعل فى عبارة ابن النديم ما يفسر ذلك ويؤكده.

٢ ـ أننا يجب أن نفرق تماماً بين الإسلام كعقيدة تحض على العلم وكل الفضائل الإنسانية وبين حاملى هذه العقيدة الذين قد يخرقونها ولا يعملون بقواعدها تحت وطأة الضعف الإنسانى. ويكفى أن نشير هنا إلى غزوة أحد التى ترك المقاتلون

فيها مواقعهم التى تحمى ظهور المسلمين ونزلوا لحصد الغنائم فانقلبت دفة الأمور وهزم المسلمون بعد انتصار. ويدخل هنا أيضاً قضية توزيع الغنائم والتمييز بين الطوائف المختلفة على أسس عرقية؛ وكذلك الفتن والحروب الداخلية بين المسلمين حتى فى العقود الأولى للإسلام فى عهد عثمان وعلى بن أبى طالب طلبًا للسلطان والملك وعرض الحياة الدنيا. إذن فلا يجب أن يحتج بأن الإسلام يحرم حرق الكتب وتخريب المكتبات لأنه يحض على العلم وتكريم العلماء فكل ذلك جزء من العقيدة وليس من الضرورى أن يكون جزءاً من سلوك المسلم.

٣ ـ أشار ابن خلدون فى مقدمته إلى بعض خصال العربى وكيف أنه لا يطيق أن يرى حضارة مزدهرة وأنه يميل إلى تخريبها كلما سنحت له الفرصة. وكان الجنود الذين صحبهم عمرو بن العاص فى فتوحاته فى مصر من البدو القح الذين لم تهذبهم الحضارة والمدنية بعد ومن ثم فإنهم لم يقدروا الكتب والمكتبات حق قدرها.

٤ ـ أن عمر بن الخطاب يمكن فعلاً أن يكون قد أصدر تعليماته المذكورة بحرق المكتبة والكتب باعتبارها من تراث الوثنية وقد أراد بحسه الدينى أن يجنب المسلمين كل ما يفتنهم فى دينهم. وكما أشرت مرارًا من قبل كانت الإسكندرية موطن عقيدة التثليث التى أفسدت الديانة المسيحية وجعلتها هى والوثنية شىء واحد وقد أثمها القرآن الكريم وكفر معتنقيها. ولعمر بن الخطاب سوابق فى تجنيب المسلمين كل ما يفتنهم فى دينهم فهو الذى أمر بقطع شجرة البيعة التى كان المسلمون يتبركون بها، ولما رأى افتتان المسلمين بخالد بن الوليد خشى أن يقدسوه فعزله رغم الانتصارات الساحقة التى حققها ورغم أنه لم يكن فى جسمه موضع خال من أثر لرمح أو خنجر ومات على فراشه وكان يتمنى لو مات فى ساحة القتال شهيداً. ولا يجب أن ننفى عن عمر بن الخطاب ذلك بل يجب أن نبرره بالهدف السامى الذى سعى إليه وأمر الردة فى عهد أبى بكر الصديق مشهور معروف.

٥ ـ تردد فى المصادر المختلفة حالات إحراق للمكتبات على يد المسلمين فى بلاد أخرى غير مصر؛ وقد أتى حاجى خليفة فى كشف الظنون على بعض الأمثلة فقال بأن المسلمين عندما فتحوا بلاد فارس وأصابوا من كتبهم، كتب سعد بن أبى وقاص إلى عمر بن الخطاب يستأذنه فى شأنها وتنقيلها للمسلمين فكتب إليه عمر أن اطرحوها فى الماء فإن يكن فيها هدى فقد هدانا الله تعالى بأهدى منه وإن يكن ضلالاً فقد كفانا الله تعالى فطرحوها فى الماء أو فى النار فذهبت علوم الفرس فيها. كذلك فإنه فى أثناء كلام حاجى خليفة عن «أهل الإسلام وعلومهم» يقول بأنهم أحرقوا ما وجدوا من الكتب فى فتوحات البلدان، وربما كان لذلك صدى عند ابن خلدون مرة ثانية حيث تساءل بقوله «فأين علوم الفرس التى أمر عمر بمحوها عند الفتح». وحاجى خليفة هو الذى قال بأن «العرب فى صدر الإسلام لم يقنعوا بشىء من العلوم إلا بلغتهم وشريعتهم».

٦ ـ أن من سلوك المنتصر فى كل العصور ـ بعد الانتصار العسكرى ـ أن يأخذ فى تدمير فكر المهزوم حتى لا تقوم له قائمة بعد ذلك أبدًا، ويكون ذلك إما بحرق وسحق الكتب والمكتبات أو بنقل تلك الكتب والمكتبات إلى بلد المنتصر.

ومن المعروف أن الماديات يمكن تعويضها بينما الدعائم المعنوية لا يمكن أن تعوض إلا بعد فترات طويلة وبحيث يبدأ المهزوم من جديد. انظر إلى هولاكو التترى وما فعله بالمكتبات الإسلامية فى المناطق التى اكتسحها فى القرن السابع الهجرى حيث قيل أنه اتخذ من الكتب جسراً فى النهر تعبر عليه قواته ومحواً لما فيها من العلوم بل إنه بنى من تلك الكتب اصطبلات للخيول وطوالات للمعالف بدلاً من الآجر والطوب، وانظر إلى صلاح الدين الأيوبى نفسه عندما أمر بتدمير المكتبات الفاطمية فى مصر سواء بيت العلم أو مكتبات القصور وكيف أن جنوده كانوا ينزعون جلود الكتب ليصنعوا منها نعالاً وأحذية لهم. ونفس صلاح الدين الأيوبى فعل بمكتبات الشام نفس ما فعله بمكتبات مصر حتى قيل أن المجموعات التى دمرها قد بلغت فى مصر والشام نحو أربعة ملايين مجلد. انظر أيضاً إلى الصليبيين الذين أحرقوا مكتبات الشام

خلال الحروب الصليبية ومكتبة طرابلس تقف شاهداً على ذلك، تلك المكتبة التى ضمت نحو ثلاثة ملايين مجلد وكانت هناك قاعات بأكملها مخصصة للمصحف الشريف وكلما دخل الصليبيون قاعة وجدوا بها المصحف فاعتقدوا أن المكتبة كلها مخصصة للمصاحف فأمر الكونت برترام سانت جيل بإحراق المكتبة عن آخرها.

وانظر كذلك إلى إيزابيلا وفرديناند اللذين تغلبا على ملوك الطوائف فى الأندلس وطردوا المسلمين واليهود منها وأحرقا ما استطاعا حرقه من الكتب والمكتبات الإسلامية فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى.

كذلك فإن هذا السلوك هو أيضاً سلوك مذهبى حيث يعمد أهل ملة معينة أو مذهب بالذات إلى حرق كتب المذهب المعادى حتى يقهروا فكر هذا المذهب، وهذا السلوك ليس سلوكاً إسلامياً فقط وإنما هو موجود كذلك فى المسيحية وغيرهما. كما فعل عبد الله بن طاهر بكتب فارسية كانت لاتزال باقية إلى أيامه سنة ٢١٣هـ من مؤلفات المجوس وقد عرضت عليه ولما تبين حقيقتها أمر بإلقائها فى الماء وبعث إلى الأطراف أن من وجد شيئًا من كتب المجوس فليعدمه. واضطهاد فكر الشيعة وكتبهم أمر معروف مشهور فى التاريخ الإسلامى.

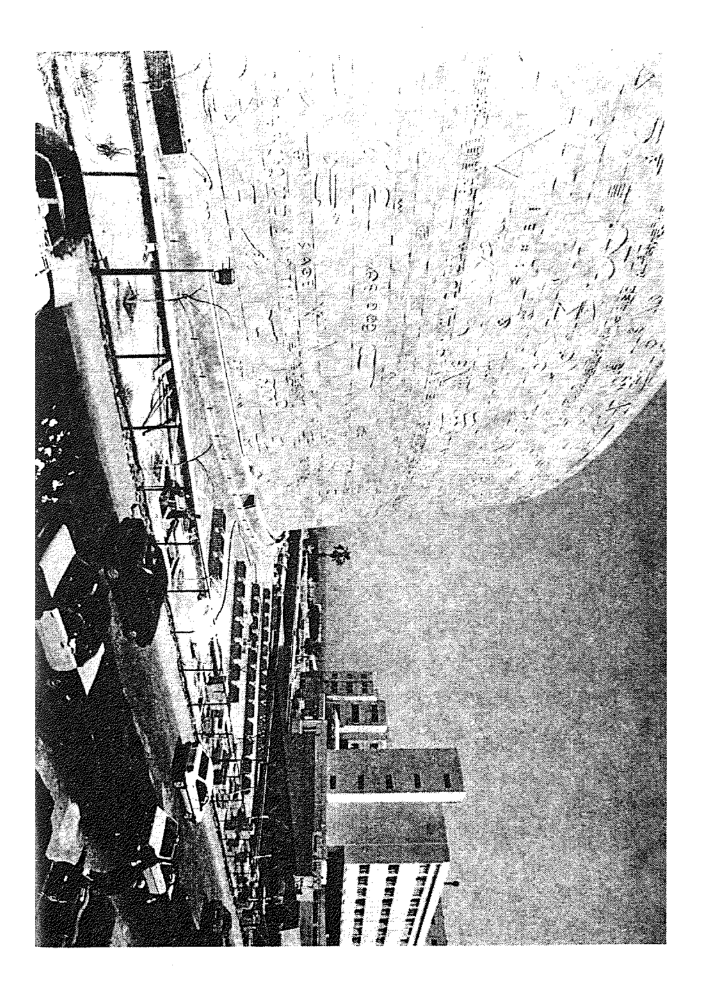
٧ - أن أصحاب الدين الجديد يعتقدون أن دينهم يجب الأديان السابقة عليه ومن ثم فلابد من هدم معابد تلك الأديان وما بها من كتب ومكتبات تؤيدها وتساعد أنصارها على فهمها والتمسك بها. وقد أشرنا من قبل أن أباطرة الروم بعد أن اعتنقوا المسيحية تعصبوا لها - بعد أن كانوا أعداءها اللدودين - وأمروا بهدم المعابد التى أقيمت قبل المسيحية وأحرقوا ما بها من مكتبات. ومن ثم فإن سلوك المسلمين إزاء مكتبة الإسكندرية ليس بغريب عن سلوك أصحاب الديانات الجديدة. وربما كانوا يعتبرون ذلك تقرباً إلى الله.

٨ - لقد انتشرت بين بعض علماء المسلمين ظاهرة من أغرب ظواهر السلوك إزاء الكتب والمكتبات وهى ظاهرة حرق وغسل ودفن الكتب. فالعالم منهم يظل طول حياته

يجمع الكتب ويكدسها فى مكتبته الشخصية وينفق عليها بسخاء بل يستدين ويقترض ويرهن ممتلكاته فى سبيلها حتى تتضخم وتصبح «ملء بيت إلى السقف» أو «تحمل على أربعمائة بعير» وغير ذلك من العبارات الدالة على حجم المكتبة وفى نهاية حياته يحملها إلى شاطىء النهر ليغسلها أو يحملها إلى الصحراء ليحرقها أو يدفنها هناك والأمثلة على ذلك كثيرة جداً مثلما فعل أحمد بن أبى الحوارى، وسفيان الثورى، وأبو عمرو بن العلاء بل وأبو حيان التوحيدى نفسه وغيرهم مئات. وفى تعليل تلك الظاهرة يقال بأن العالم منهم قد يرى فى نهاية عمره أن الكتب قد ألهته عن ذكر الله فيقرر التخلص منها أو كما قال أبو حيان التوحيدى «لم أشأ أن أجعل الهم همين»، كما كان بعض العلماء يخشى أن تقع تلك الكتب فى أيدى من يسيئون استخدامها، وبعض العلماء يتخلص من مكتبة ضناً بها على من لا يستحقون من الأجيال التالية.

٩ ـ أن الرواية المذكورة حتى ولو كانت فيها مبالغة فإنها لابد وأن تنطوى على بذرة الحقيقة ولا يمكن عقلاً أو منطقًا أن تكون من أولها إلى آخرها محض اختلاف من عدم. ومن غير المعقول أن يكون كل هذا التواتر لقصة خيالية لا أساس لها من الصحة والواقع كما ذهب أ. ج. بتلر.

تلك إذن هى أهم الأدلة العقلية الاستنباطية التى يسوقها أصحاب الرأى الذى يميل إلى تصديق رواية حرق العرب لمكتبة الإسكندرية. وأود أن أؤكد فى نهاية هذه المعالجة أن باب الاجتهاد مازال مفتوحًا وأن الكلمة النهائية الحاسمة لم تعلن بعد وربما يجود علينا الزمن بأدلة نقلية تحسم هذه القضية فقد تكشف الحفريات عن مكتبة الإسكندرية الأم أو عن مكتبة معبد السيرابيوم أو مكتبة القيصرون مطمورة مغمورة فى باطن أرض الإسكندرية كما حدث فى مكتبات العراق القديم ومكتبة برجاموم أو مكتبة الهيركلانيوم. ساعتئذ سوف نقفل باب المناقشة والاجتهاد ويسد الستار على أعظم مكتبات العالم حتى بداية القرن العشرين الميلادى.



الفصل الخامس
مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية

ربما تبدأ المشروعات العظيمة بالصدفة أو بحماس رجل واحد، ومشروع إحياء مكتبة الإسكندرية هو من هذا النوع الذى بدأ بحماس شخص معين فقد كان أحد أساتذة جامعة الإسكندرية فى زيارة لمكتبة الكونجرس وقابل مدير تلك المكتبة العالمية التى ليس لها مثيل فى التاريخ سوى مكتبة الإسكندرية القديمة. ويبدو أن انبهار أستاذ جامعة الإسكندرية بمكتبة الكونجرس جعله يربط أثناء تلك الزيارة التى وقعت فى منتصف السبعينات من القرن العشرين بين مكتبة الكونجرس ومكتبة الإسكندرية القديمة وتطرق الحديث إلى المقارنة بين عالمية كلتا المكتبتين، ثم داعب أستاذ جامعة الإسكندرية مدير مكتبة الكونجرس - دانييل بروستين آنذاك - وقال له لماذا لا نحيى مكتبة الإسكندرية القديمة وفى نفس المكان وأخذ مدير مكتبة الكونجرس الدعابة على محمل الجد ومن هذه النقطة بدأ التفكير الجدى فى مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة. وقد أبدى دانييل برومستين (مدير مكتبة الكونجرس ١٩٧٤ - ١٩٨٧) استعداد مكتبة الكونجرس للقيام بدور فعال ودولى فى هذا الصدد وابتدأ من يونيو ١٩٧٦م فى إعداد ملف خاص بالموضوع وأرسل بذلك مذكرة إلى مدير منظمة اليونسكو فى باريس وطلب اعتبار هذا المشروع مهمة دولية تقوم بها المنظمة. وكان لابد لجامعة الإسكندرية ورئيسها فى ذلك الوقت أ. د. محمد لطفى دويدار، من أن تقوم بدورها باعتبار أن الفكرة نبتت من داخلها وأن أستاذاً بها هو الذى طرح الموضوع ونظرت جامعة الإسكندرية آنذاك إلى المشروع على أنه مشروع محلى سكندرى بحت. وفى سنة ١٩٨٠ بدأ طرح المشروع على نطاق أوسع ودخلت فيه أطراف عديدة وكانت الفرصة مواتية حيث كانت مصر تحتفل بإنقاذ معبد أبو سمبل إقامته فى موقعه الجديد أمام ممثلين من دول العالم المختلفة.

تبرعت جامعة الإسكندرية بقطعة الأرض التى ستقام عليها المكتبة وكذلك بمركز

المؤتمرات المقام فعلاً إلى جوار تلك الأرض. وقام خبراء من منظمة اليونسكو بزيارة جامعة الإسكندرية، كما قام بعض أساتذة جامعة الإسكندرية بزيارة للمنظمة الدولية فى باريس لتنسيق الخطط الرامية لإحياء فكرة المكتبة ومراجعة تلك الخطط والاتجاه بها صوب الدولية. وتوفر الفريقان على إعداد دراسات الجدوى وإعداد التقارير الخاصة بالاستعدادات اللازمة لهذا العمل سنة ١٩٨٧. وفى العام التالى سنة ١٩٨٨ صدر النداء الدولى لدعم ومساندة مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية. وكان مدير اليونسكو فى ذلك الوقت أحمد مختار أمبو قد قام فى فبراير ١٩٨٦ بزيارة إلى جامعة الإسكندرية لوضع صياغة النداء الدولى، ودعا المجلس التنفيذى لليونسكو فى دورته التى عقدت فى يونية ١٩٨٦ إلى التعاون مع الحكومة المصرية فى إعداد وتنفيذ المشروع وتمويل دراسة الجدوى المشار إليها. وفى أكتوبر ١٩٨٧م أصدر المؤتمر العام لليونسكو موافقته على صيغة النداء الدولى لدعم المشروع وطبع هذا النداء وصيغ بخمس لغات هى العربية والإنجليزية والفرنسية والأسبانية والروسية؛ وقد وجه النداء فى مطلع سنة ١٩٨٨ إلى الدول والمنظمات والأفراد فى جميع أنحاء العالم.

وفى يونية ١٩٨٨ توج هذا النداء بوضع حجر الأساس لهذا المشروع العظيم وقد وضع الحجر السيد الرئيس محمد حسنى مبارك والمدير العام الجديد لليونسكو فيديريكو مايور الذى خلف أحمد مختار أمبو.

وبمقتضى هذه الخطوات خرج المشروع من المحلية وأصبح مشروعاً وطنيًا مصريًا ولم تعد جامعة الإسكندرية هى المشرفة عليه ولكن أصبح المشرف عليه هو وزارة التعليم العالى مع تمثيل منظمة اليونسكو الدولية. وكان لابد من أن يأخذ هذا المشروع بعده الدولى ويعلن عنه فى احتفال يليق بالعمل التاريخى هذا.

عقد اجتماع دولى فى مدينة أسوان فى صعيد مصر ١١ ـ ١٢ من فبراير ١٩٩٠ وأعلن عن بدء المشروع فيما عرف بإعلان أسوان، وفتح باب التبرعات وجاءت التبرعات فى حينها من مصادر مختلفة، وقد حدد تاريخ الافتتاح فى شهر يوليو ١٩٩٥.

قدرت تكاليف مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية بنحو ١٦٠ مليون دولار. وقد جاءت المساهمة المصرية على شكل قطعة الأرض ومبنى مركز المؤتمرات، وقدرت هذه المساهمة بحوالى ستين مليون دولار: قطعة الأرض التى تبلغ مساحتها أربعين ألف متر مربع بقيمة أربعين مليون دولار (أى ألف دولار للمتر الواحد المربع) ومبنى مركز المؤتمرات الذى قدرت قيمته بنحو عشرين مليون دولار. وترك للمساهمات الدولية الأموال السائلة والتى تقدر بمائة مليون دولار تم جمع ٦٤ مليوناً منها فى نفس يومى اجتماع أسوان التاريخى ١١ ـ ١٢ من فبراير ١٩٩٠م، وهو مبلغ المساهمة العربية وحدها وقد جاءت تبرعات مالية من جهات مختلفة دولية ومحلية ومن أفراد محليين ودوليين بما يرفع المبلغ المتحصل كثيراً مع فوائد البنوك ليصل إلى الميزانية المستهدفة بداية. والذى نريد أن نخلص إليه هو أن المشروع لا تعوزه الموارد لا المادية ولا المالية ولا البشرية. وليس هناك مبرر لتأخر افتتاح المكتبة.

ولعله من نافلة القول أنه فى ١٤ من ديسمبر ١٩٨٨ (الرابع من جمادى الأولى سنة ١٤٠٩هـ) صدر قرار رئيس الجمهور بإنشاء الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية وهو القرار الذى وضع الخطوط العريضة لعمل الهيئة التى تتبعها المكتبة. وحيث يجدر بنا أن نشير أيضاً إلى عدم وجود لوائح داخلية تنظم عمل المكتبة أو ترسم خطوط التنظيم الداخلى لها. (انظر نص القرار الجمهورى فى نهاية هذا الفصل).

وتحدد المادة الثامنة من هذا القرار موارد الهيئة على النحو الآتى:

١ ـ ما تدرجه الدولة من اعتمادات لها فى الموازنة.

٢ ـ الإعانات والتبرعات والهبات والوصايا والإسهامات الداخلية والخارجية.

٣ ـ القروض التى تعقد لصالح الهيئة.

٤ ـ مقابل الخدمات التى تقدمها الهيئة.

٥ ـ عائد استثمار أموال الهيئة.

٦ ـ أية موارد أخرى تتقرر للهيئة.

كما نصت المادة التاسعة من نفس القرار على أن تكون للهيئة موازنة خاصة فى إطار الموازنة العامة للدولة وتبدأ السنة المالية للهيئة ببداية السنة المالية للدولة وتنتهى بنهايتها، ويفتح حساب خاص للهيئة بالبنك المركزى المصرى أو بأحد البنوك التجارية بموافقة وزارة المالية تودع فيه أموالها ويرحل فائض هذا الحساب من سنة إلى أخرى.

وقد حددت المواد الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة عناصر إدارة هيئة مكتبة الإسكندرية؛ فقد نصت المادة الرابعة على تشكيل مجلس الإدارة من قبل مجلس الوزراء على النحو الآتى:

- وزير التعليم (العالى) رئيساً.
- رئيس جامعة الإسكندرية نائباً للرئيس.
- محافظ الإسكندرية أو من ينيبه.
- ثلاثة من الأساتذة بجامعة الإسكندرية يختارهم مجلس الجامعة لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد.
- ممثل لكل من وزارات الثقافة والإعلام والسياحة والتعليم العالى والتربية والتعليم والخارجية يختارهم الوزراء المختصون أعضاء.
- عدد لا يجاوز خمسة من الشخصيات العامة ممن لهم مكانة خاصة فى مجال الثقافة والفكر يختارهم وزير التعليم (العالى) وذلك لمدة ثلاث سنوات قابلة للتجديد.
- مدير الهيئة.

ولمجلس الإدارة أن يشكل لجاناً من أعضائه للقيام بدراسات أو أبحاث أو مهام معينة وله أن يعهد إليها ببعض اختصاصاته. وللمجلس أن يفوض مدير الهيئة فى القيام بمهمة محددة. وتحدد بقرار من رئيس مجلس الوزراء المكافآت التى تصرف لأعضاء مجلس الإدارة.

كما نصت المادة الخامسة على أن مجلس الإدارة هو السلطة المهيمنة على شئون

الهيئة وتصريف أمورها وإقرار السياسة التى تسير عليها وله اتخاذ ما يراه لازماً من قرارات لتحقيق الغرض الذى أنشئت الهيئة من أجله وذلك فى حدود السياسة العامة للدولة فى مجال العلم والفكر وتنمية القيم الإنسانية والحضارية وله على الأخص ما يلى:

١ ـ إصدار اللائحة الداخلية للهيئة واللوائح المنظمة للشئون العلمية والإدارية والفنية. ويكون إصدار اللوائح المالية بعد موافقة وزارة المالية.

٢ ـ إقرار الخطط اللازمة لإتمام تنفيذ مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية والعمل على تذليل ما يعترضه من عقبات.

٣ ـ وضع اللوائح المتعلقة بشئون العاملين وتحديد مرتباتهم ومكافآتهم دون التقيد بالنظم الحكومية، مع مراعاة الحدود القصوى للمرتبات المنصوص عليها فى قانون نظام العاملين المدنيين بالدولة.

٤ ـ وضع الهيكل التنظيمى للهيئة وجداول الوظائف بها.

٥ ـ إجراء الاتصالات بالهيئات وبالدول الأجنبية والمؤسسات العامة والشخصيات البارزة التى تهتم بتنفيذ المشروع لدعوتها للمساهمة فيه بالأساليب التى تتراءى لها وقبلها مجلس الإدارة.

٦ ـ قبول الإعانات والهبات والتبرعات والوصايا والإسهامات الداخلية منها والخارجية التى تتفق مع أغراض الهيئة وذلك فى حدود النظم المقررة.

٧ ـ النظر فى التقارير الدورية التى تقدم عن سير العمل بالهيئة ومركزها المالى.

٨ ـ الموافقة على مشروع الهيئة وحسابها الختامى.

٩ ـ مباشرة جميع التصرفات اللازمة لإدارة الهيئة.

١٠ ـ النظر فى كل ما يرى رئيس مجلس الإدارة عرضه من مسائل تدخل فى اختصاص الهيئة وتعرض قرارات مجلس الإدارة على وزير التعليم لاعتمادها.

وجبرًا لخاطر جامعة الإسكندرية ولأن المشروع قد سحب منها وأضفيت عليه الصبغة الوطنية العامة فقد نصت المادة السادسة من القرار الجمهورى على أن تتولى جامعة الإسكندرية دعم تنفيذ مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية علميًا وأكاديميًا وفقًا للنظم التى يقررها مجلس إدارة الهيئة بالاتفاق مع مجلس جامعة الإسكندرية.

ونصت المادة السابعة على تعيين مدير للهيئة بقرار من رئيس الجمهورية بناء على عرض من وزير التعليم العالى ويتضمن القرار تحديد مرتباته وبدلاته. ويكون مدير الهيئة مسئولاً عن تنفيذ سياسة الهيئة التى يخطها مجلس الإدارة ويتولى متابعة تنفيذ قراراته وتصريف شئون الهيئة وفقًا للقانون ولأحكام هذا القرار وتحت إشراف مجلس الإدارة وفى حدود الاختصاصات الأخرى المخولة له فى لوائح الهيئة.

وحتى تكتسب الإدارة شيئًا من الدولية وانسجامًا مع ما جاء فى القرار الجمهورى من أن مجلس إدارة الهيئة له سلطات تشكيل لجان دائمة ومؤقته لأغراض محددة شكلت لجنة دولية تحت اسم «اللجنة التنفيذية الدولية» وتتألف هذه اللجنة من خمسة مصريين على حسب مناصبهم: وزير التعليم العالى (رئيس مجلس إدارة الهيئة) ويكون رئيساً للجنة؛ مستشار وزير التعليم العالى، رئيس جامعة الإسكندرية؛ نائب رئيس مجلس الدولة، رئيس هيئة الاستعلامات. وهناك أعضاء تحددهم دولهم وهى: اليونان - فرنسا - إيطاليا - عمان - السعودية - تركيا - الإمارات - الولايات المتحدة بالإضافة إلى ممثل اليونسكو فى اللجنة.

ومن الجدير بالذكر أنه قد تم تشكيل هذه اللجنة التنفيذية الدولية للمشروع بناء على اتفاق عقد بين مصر ومنظمة اليونسكو وقد صدق على ذلك التشكيل مجلس الشعب فى مصر وذلك فى شهر فبراير ١٩٩٢. وقد باشرت اللجنة عملها بعد ذلك مباشرة وعقدت أول اجتماع لها ١٩٩٢/٤/٢٦ فى مركز المؤتمرات بالإسكندرية وتوصلت فى ذلك الاجتماع إلى:

أ - الإحاطة بقرارات تعيين رئيس اللجنة التنفيذية الدولية ومدير المشروع ونائب مدير المشروع.

ب ـ الموافقة على الهيكل التنظيمى للأمانة التنفيذية لمشروع إحياء مكتبة الإسكندرية وهى الجهاز المنوط به تنفيذ قرارات اللجنة والإشراف على تنفيذ المشروع.

ج ـ الموافقة على خطة وبرنامج العمل فى المشروع على المدى الطويل ١٩٩٢ ـ ١٩٩٦ من حيث المبدأ والذى قدرت تكاليفه المبدئية فى ذلك الاجتماع بنحو ١٧١ مليون دولار.

د ـ الموافقة على الموازنة المبدئية التقديرية لعام ١٩٩٢، وأن يتم الصرف على البنود الواردة حسب المصروفات الفعلية لكل بند.

هـ تشكيل لجنتين فرعيتين: الأولى لدراسة وإقرار مشروع التعاقد المقدم من المكتب الهندسى النرويجى «سنوهيتا» لإعداد تصميمات المشروع الهندسية؛ والثانية لدراسة مجالات المجموعات التى تغطيها المكتبة والأنشطة الثقافية التى سوف تمارسها المكتبة.

و ـ الموافقة على شراء ١٥٠٠م٢ مبانى كمقر للأمانة التنفيذية والهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية ولإدارة المكتبة كى تجمع فيها المجموعات وتعدها تمهيداً لتسكينها فى المكتبة عندما يكتمل مبناها. وقد تم شراء هذا المسطح فى أحد العقارات وسط مدينة الإسكندرية.

ومنذ ذلك التاريخ بدأ دولاب العمل بالمكتبة فى أعمال التنفيذ الفعلية ومباشرة الصلاحيات المخولة له فى القرار الجمهورى ٥٢٣ لسنة ١٩٨٨.

وتضرب إدارة الهيئة ستاراً كثيفاً على عدد العاملين الآن فى المشروع ومؤهلاتهم والأعمال التى تم إنجازها والأعمال التى هى قيد الإنجاز.

الموقع والمبنى والتجهيزات

كانت هناك مجموعة من الاقتراحات لاختيار مكان لإقامة مكتبة الإسكندرية خارج إطار حرم المدينة الحالية وذلك للحصول على مساحة كبيرة من الأرض تسمح بالتوسع

المستقبلى وتوفير الضوء والتهوية الطبيعية وليس من الضرورى أن يسهل الوصول إليه. ولكن جامعة الإسكندرية قدمت قطعة من الأرض تملكها إلى جانب مركز المؤتمرات القائم بالفعل وكان مبرر ذلك أن تلك البقعة هى نفسها التى يعتقد أنها كانت تضم المكتبة القديمة والمتحف. تبلغ مساحة الأرض التى قدمتها الجامعة أربعين ألف متر بما فى ذلك مبنى وأرض مركز المؤتمرات (أى حوالى تسعة أفدنه ونصف) وذلك على كورنيش المدينة بالسلسلة بحيث يحد الموقع الكورنيش فى مواجهة الميناء الشرقى وعلى امتداد البصر قلعة قايتباى على ما يعتقد أنه جزء من جزيرة فاروس القديمة. وعبر شارع بور سعيد نجد المجمع النظرى لجامعة الإسكندرية (كليات الآداب الحقوق ـ التجارة ـ التربية). وفى مبنى مركز المؤتمرات نجد مسارح وقاعات اجتماعات مجموع طاقتها نحو ٣٢٠٠ مقعداً.

وبعد تحديد الموقع على هذا النحو ووضع حجر الأساس كما ألمحت فى شهر يونيو ١٩٨٨م، طرح مبنى المشروع فى مسابقة دولية للتصميم المعمارى، وقد قدم برنامج الأمم المتحدة مبلغ ٦٠٠ ألف دولار لتمويل تلك المسابقة الدولية بالاشتراك مع الاتحاد الدولى للمعماريين.

ولقد تقدم إلى هذه المسابقة حوالى ١٤٠٠ معمارى متسابق من ٧٧ دولة وقد وقع اختيار لجنة التحكيم على المشروع المقدم من الشركة النرويجية والذى فاز بالجائزة الأولى وقدرها ستون ألف دولار والمشروع النرويجى يدخل فيه ثلاثة نرويجيون وأمريكى ومصرى واسترالى. وهذا المشروع الفائز يجعل تصميم المكتبة على شكل قرص الشمس الغارب فى الماء ويجعل سطح المكتبة كلاً واحداً منحدراً متدرجا بمناسيب محددة بحيث يتمتع المبنى كله بضوء النهار ويمكن لمن يقف على حافة القرص المنحدر أن يرى جميع جوانب المبنى. وسطح المكتبة كله من الزجاج وجدار المكتبة المنخفض جداً من ناحية البحر والمرتفع جداً من ناحية المجمع النظرى لجامعة الإسكندرية، أصم ليست به فتحات أو نوافذ بأى حال من الأحوال ويكسى هذا الجدار

بنقوش هيروغليفية وحروف الأبجديات المختلفة. ويعكس التصميم الخارجى هذا شكل التصميم الداخلى حيث نجده عبارة عن مستويات متعاقبة فى الارتفاع تقوم على أعمدة هى الأخرى متعاقبة الارتفاع بنفس القدر وبحيث يكشف كل صف من الأعمدة عن بداية طابق جديد من الناحية النظرية فقط لأنه من الناحية العملية لا توجد طوابق فعلاً. وإذا كانت المكتبة كلها تتمتع بضوء الشمس نهاراً فإنها ليلاً تضاء من سقف واحد.

وكانت لجنة التحكيم التى شكلتها الجهات الراعية الثلاث للمشروع (مصر - اليونسكو - برنامج الأمم المتحدة للتنمية)، قد وضعت مجموعة من المعايير لاختيار المشروع الفائز ومن بين تلك المعايير:

أ - علاقة التصميم المعمارى بالصورة العامة للمدينة والموقع المحدد للمكتبة.

ب - انسجام التصميم مع الموقع والبيئة المحيطة به.

ج - الشكل والطراز المعمارى للمبنى عندما يقام.

د - التصميم الوظيفى العام.

هـ - الإمكانية الاقتصادية لتنفيذ التصميم.

و - المكونات الرمزية للمبنى من الداخل.

لقد كان هناك تفكير فى أن يكون تصميم المكتبة الجديدة على غرار شكل مبنى المكتبة القديمة التى بنيت فى القرن الثالث قبل الميلاد ولكن أثيرت عدة مشاكل أمام هذا النوع من التفكير من بينها أنه لم يصلنا أى تصميم متكامل للمكتبة القديمة وكل ما لدينا مجرد تخمينات وقياسات، كما أن تصميم المكتبة القديمة كان يتمشى بالضرورة مع الطراز المعمارى السائد فى مدينة الإسكندرية وربما سائر المدن الجديدة فى عموم الامبراطورية. ومن هنا كان لابد من أن يأتى تصميم المكتبة الجديدة مراعياً لظروف الوقت الذى تقوم فيه وظروف المكان الذى تنشأ فيه؛ وفى نفس الوقت يكون تصميمًا فريداً جديداً فذاً بين أقرانه من تصميمات المكتبات العالمية فى زماننا.

ورغم فوز المشروع النرويجى فى المسابقة إلا أنه كانت هناك بالضرورة بعض الانتقادات الموجهة له وهو أمر طبيعى ولذلك قامت الشعبة القومية لليونسكو فى مصر بعقد ندوة قومية عن مشروع إحياء المكتبة فى فندق فلسطين بالإسكندرية وذلك لمناقشة المشروع الفائز والنظر فى الانتقادات الموجهة له. وقد ضمت الندوة نخبة من كبار أساتذة العمارة والهندسة المدنية فى الجامعات المصرية والهيئات والمؤسسات المعنية ببحوث البناء والإسكان والتخطيط. وحضر أيضاً لفيف من الخبراء فى العمارة والهندسة المدنية، وكان لابد من تواجد ممثلين عن منظمة اليونسكو وبرنامج الأمم المتحدة للتنمية والاتحاد الدولى للمعماريين. ولقد قام الحاضرون على مدى عشر ساعات بإبداء آرائهم ومناقشة المشروع الفائز وكانت الملاحظات تدور أساسًا حول الجوانب الإنشائية والمعمارية والتخطيط الحضرى وعلاقة التصميم بالمواقع المحيطة والبيئة الحضرية. وقد أبدى الفريق النرويجى استعداده التام لأخذ تلك الملاحظات فى الاعتبار عند التنفيذ الفعلى للمبنى.

وفى الحقيقة أنه حتى كتابة هذه السطور لم يتم من المبنى سوى الهيكل الخرسانى فقط وعلى الجدران من الخارج بدأت الرسومات الفرعونية والكتابات الهيروغليفية وأبجديات الشعوب المختلفة فى الظهور على تلك الجدران الصماء المرتفعة المطلة على شارع بورسعيد فى مواجهة المجمع النظرى لجامعة الإسكندرية. أما فى داخل المبنى فلم يحدث أى شىء على الإطلاق.

ونحن لا نستطيع والحالة هذه أن نقدم أية معلومات عن التنظيم الداخلى أو التصميم الداخلى وتوزيع الأقسام والإدارات والشعب على المبنى من الداخل وكل ما نملكه تصور مبدئى للهيكل التنظيمى للمكتبة قد ينفذ بعد الافتتاح أو قد يظهر أنه غير قابل للتنفيذ.

ينقسم التنظيم الداخلى إلى قطاعين كبيرين هما قطاع الخدمات العامة وقطاع المرافق الداخلية. وتحت كل قطاع نصادف عدداً من الإدارات. تحت الخدمات العامة نجد:

١ ـ إدارة الأنشطة الثقافية.

٢ ـ إدارة مجموعات الكتب والدوريات.

٣ ـ إدارة المجموعات الخاصة.

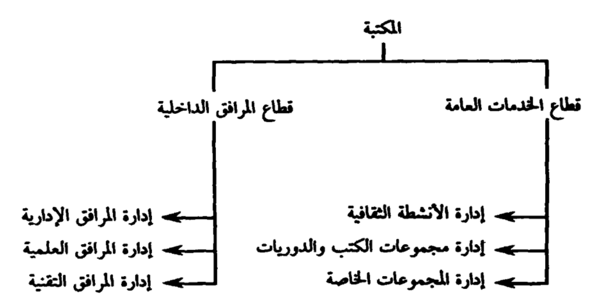
وتحت المرافق الداخلية نجد:

١ ـ إدارة المرافق الإدارية.

٢ ـ إدارة المرافق العلمية.

٣ ـ إدارة المرافق التقنية.

ويمكن تصوير هذا التنظيم فى الشكل الآتى:



ومن الجدير بالذكر أن الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية سوف تضم أيضاً معهدًا لتعليم علوم المكتبات والمعلومات ويظهر فى أوراق الهيئة تحت تسمية «المدرسة الدولية لعلم المعلومات». وكان المفروض أن تفتتح المدرسة منذ بداية المشروع فى نحو سنة ١٩٩٢/ ١٩٩٣ ولكن رغم وضع مقررات المدرسة وتصور أسلوب الدراسة والتدريس والمستوى الأكاديمى إلا أنه لم تتخذ أية خطوات عملية فى هذا الاتجاه لأسباب نفسية وإدارية.

وإذا عدنا للهيكل التنظيمى للمكتبة، سوف نجد أن إدارة الأنشطة الثقافية يقصد بها أن تقوم بدور العلاقات العامة والدعوة المكتبية وجذب الجمهور القارىء إلى المكتبة ومن الأنشطة المقررة لهذه الإدارة إقامة معارض الكتب والأجهزة والمواد المكتبية المختلفة سواء الدائمة أو المؤقتة؛ وتنظيم المناسبات المختلفة مثل الحفلات الموسيقية والمحاضرات الثقافية والندوات والمؤتمرات. . . ونجد فى أوراق المكتبة أن هذه الإدارة سوف تنطلق فى أنشطتها من قاعة فسيحة أو داخل مبنى مركز المؤتمرات، حيث تذكر الأوراق أن أحد منافذ قاعة بطليموس سيفضى إلى المكتبة الرئيسية عبر ممر واحد مراقب يطل على قاعة كاليماخوس. وتذكر أوراق المكتبة أيضاً أن المبنى سوف يضم متحفًا للخطوط ومواد الكتابة وتاريخ العلوم ومتجراً لبيع الكتب والأدوات والقرطاسية كما قامت بالفعل خارج مبنى المكتبة القبة السماوية على غرار الجناح أو المرصد الفلكى فى المكتبة القديمة.

وفيما يتعلق بإدارة مجموعات الكتب والدوريات تذكر أوراق المكتبة أنه سوف تخصص فى بهو المكتبة مساحة مركزية للفهارس وقواعد البيانات البيليوجرافية والإعارة والاستعلامات. وحول هذه المساحة تقسم مجموعات الكتب والدوريات إلى خمسة أركان (أقسام) على النحو الآتى:

١ ـ المراجع عامة ومتخصصة.

٢ ـ الجغرافيا والتاريخ والآثار والتراجم.

٣ ـ العلوم الاجتماعية والفنون وتاريخ العلم.

٤ ـ اللغات والآداب.

٥ ـ العلوم البحتة والتطبيقية (التكنولوجيا).

أما إدارة المجموعات الخاصة فإنها سوف تختص بالمواد خارج الكتب والدوريات وقد حددت مبدئيًا على أنها تقع فى الفئات الأربعة الآتية:

أ ـ المواد السمعية البصرية والإلكترونية وأجهزة استعمالها.

ب ـ المخطوطات والكتب النادرة أى أوائل المطبوعات، والوثائق ذات القيمة.

ج ـ الخرائط بكل أنواعها وفئاتها: جغرافية على اتساعها وجيولوجية وآثارية وغيرها.

د ـ الموسيقى سواء القطع المسجلة أو المدونات (النوتات) الموسيقية نفسها.

وعندما نعود إلى تقسيم قطاع المرافق الداخلية فسوف نجد فيه ثلاث إدارات تختص إحداها بالشئون الإدارية: السكرتارية، الموظفون، الاتصالات والنقل، الشئون المالية. أما إدارة المرافق العلمية فإنها تعنى كما تشير أوراق المكتبة بأعمال الاقتناء والتزويد والفهرسة والتصنيف والتحسيب الآلى، أى أنها تضم فيما نقول أقسام الإعداد الفنى وبناء مجموعات المكتبة. وإدارة المرافق التقنية تقوم بنوعين من الأعمال: تجليد وصيانة المجموعات وترميمها وصيانة الآلات والأجهزة وإعدادها للتشغيل؛ كافة الأعمال المتعلقة بالمبنى نفسه من صيانة إلى نظافة إلى أمن إلى إحلال...

ولم نقف حتى الآن على موقع تلك الإدارات والأقسام على خريطة التنظيم الإدارى والتوزيع على المبنى، هل ستكون فى مركز المؤتمرات أم داخل مبنى المكتبة نفسه؟

هوية المكتبة والمجموعات

وضع تصميم المبنى فى المساحة المحددة له على أساس أن يتسع لأربعة ملايين مجلد، على أن تفتتح المكتبة بمائتى ألف مجلد كتب وألف وخمسمائة دورية، على أن تنمو المجموعات مع السنوات حتى تكتظ المكتبة عن آخرها بالملايين الأربعة من المجلدات كأقصى طاقة مقدرة لها. ويجب أن نلاحظ أنه لا توجد أية فرصة للمكتبة كى تتوسع مستقبلاً إلا إذا استولت على مبنى المستشفى المجاور لها وهدم المستشفى ونقل إلى مكان آخر أو استولت على مبانى المجمع النظرى للجامعة فالبحر من أمامها والمجمع النظرى من خلفها والمستشفى من يمينها وشارع سوتير من يسارها.

والمشكلة الكبرى التى واجهت المسئولين واللجنة التنفيذية الدولية عند التفكير فى إقامة المكتبة هى تحديد هوية أو شخصية المكتبة وتأطير هذه الهوية وتنظيرها، أو بمعنى

آخر تسكين هذه المكتبة داخل فئة من الفئات المعروفة للمكتبات، وتحديد أهداف معينة تسعى المكتبة إلى تحقيقها؛ ولما لجأ المسئولون إلى حل حاسم لهذه المشكلة وتحديد قاطع لهوية المكتبة اتفقوا على ترك هذه القضية ولتقم المكتبة أولاً ثم تكون لنفسها هوية وقد انعكس ذلك كأوضح ما يكون على القرار الجمهورى الذى صدر بإنشاء الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية حيث يقول ذلك القرار فى مواده الثلاثة الأولى:

١ ـ تنشأ هيئة عامة تسمى الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية تكون لها الشخصية الاعتبارية ومقرها مدينة الإسكندرية وتتبع وزير التعليم (العالى).

٢ ـ تهدف الهيئة إلى تنفيذ وإدارة مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية القديمة لتكون مكتبة عالمية ومركزاً للإشعاع الثقافى والفكرى فى خدمة البحث العلمى وتحتوى على كل ما أنتجه العقل البشرى فى أية صورة متاحة من شتى الحضارات القديمة والحديثة وبجميع اللغات، فضلاً عن إجراء الدراسات المتصلة بالأسس التاريخية والجغرافية والثقافية لمصر ومنطقة الشرق الأوسط بصفة عامة ولمدينة الإسكندرية بصفة خاصة.

ومن الواضح أن هذه المادة الثانية من القرار الجمهورى قد صيغت صياغة فضفاضة أقرب ما تكون إلى الخطب المنبرية بحيث لا يمكن تكوين هوية للمكتبة بناء عليها ويمكن تحليل عناصر هذه المادة على النحو التالى:

أ ـ مكتبة عالمية.

ب ـ مركز للإشعاع الثقافى والفكرى فى خدمة البحث العلمى.

ج ـ تحتوى على كل ما أنتجه العقل البشرى بجميع صوره من كل الحضارات القديمة والحديثة، بجميع اللغات.

د ـ إجراء الدراسات المتصلة بتاريخ وجغرافية وثقافة مصر والشرق الأوسط عموماً ومدينة الإسكندرية خاصة.

وإذا نظرنا فى أى من هذه العناصر فإن المكتبة بتصميمها وظروفها التى وضعت فيها لا يمكن بحال من الأحوال أن تفى به وحيث لا يمكن أن تكون عالمية تجمع كل ما أنتجه العقل البشرى بكل صوره فى كل العصور وبجميع اللغات. ذلك أنه فى العام الواحد ينتج العقل البشرى:

مليون كتاب (يضاف إليها ما يقرب من ٣ مليون تقرير علمى ذات نشر محدود).

نصف مليون دورية (بصرف النظر عن الأعداد السنوية لكل دورية).

٢ مليون مصغر فيلمى.

٢ مليون مادة سمعية بصرية.

١٥٠,٠٠٠ ملف حاسبات آلية.

٥٠,٠٠٠ قرص ليزر.

وعدد اللغات التى يصدر بها هذا الإنتاج يصل تعسفياً إلى ٣٠٠ لغة (من أصل أربعة آلاف لغة يتكلمها سكان العالم).

ومن هذه الحسبة البسيطة فإن المكتبة لو حرصت على هذا الكل فسوف تمتلىء عن آخرها فى ثلاث سنوات فقط.

وكما جاءت المادة الثانية فضفاضة إعلامية أكثر منها علمية فقد جاءت المادة الثالثة من نفس القرار فضفاضة واسعة دعائية تقصر عن الوفاء بها ظروف المكتبة وإمكانياتها على النحو الذى سردناه سابقاً.

تقول المادة الثالثة بأن للهيئة فى سبيل تحقيق أغراضها مباشرة جميع الأعمال المتصلة بأنشطتها ولها على الأخص ما يأتى:

١ ـ الحصول على ما هو متاح من الكتب والدوريات والمخطوطات أو مصوراتها بأنواعها المختلفة خاصة ماله صلة بالتراث العلمى والفكرى للبلاد الكائنة على حوض البحر الأبيض المتوسط ومنطقة الشرق الأوسط.

٢ ـ الحصول على الدراسات الخاصة بالحضارة المصرية فى جميع العصور وتجميع كل المنشورات البردية والنقوش الكتابية فى اللغات المختلفة سواء المصرية القديمة أو اليونانية أو اللاتينية أو الآرامية أو القبطية أو العربية أو غيرها.

٣ ـ الحصول على المخطوطات أو مصوراتها باللغات العربية والفارسية والتركية والعبرية والسريانية واللغات الشرقية الأخرى التى تضم الإنجازات الفكرية للعالم الإسلامى.

٤ ـ تكوين مجموعات خاصة بالدراسات الإفريقية تضم جميع المنشورات المشتملة على النقوش التقليدية وكذلك الدراسات العلمية الحديثة التى تتناول شئون القارة الإفريقية.

٥ ـ الحصول على جميع الدراسات المتعلقة بتاريخ العالم وخصوصًا تاريخ منطقة الشرق الأوسط.

٦ ـ الحصول على جميع الدراسات الخاصة بتاريخ الطب والعلوم الأخرى المختلفة وإنجازات الحركة العلمية الحديثة.

٧ ـ إنشاء معهد عالى دولى للمكتبات أو غيره من معاهد أو مراكز البحوث والدراسات.

٨ ـ إنشاء قاعات لعرض القبة السماوية ولعرض تاريخ الكتابة وأدواتها ووسائلها وقاعات للموسيقى.

٩ ـ إنشاء قاعة لتخليد الأعلام من رجال الفكر والعلم فى التاريخ الإنسانى.

١٠ ـ إنشاء مكتبات للاسطوانات والأفلام وأرشيف للصور والشرائح التصويرية للشخصيات والمعالم ذات الأهمية فى المنطقة.

١١ ـ إعداد شبكة إلكترونية لتبادل المعلومات مع مكتبات العالم والجهات الخارجية.

١٢ - إعداد فهارس متكاملة بالكمبيوتر فى شتى مجالات أنشطة الهيئة.

١٣ - إنشاء مركز للوثائق والإحصاء.

١٤ - إنشاء مطبعة حديثة تزود بأحرف الكتابة الهيروغليفية واليونانية واللاتينية والعبرية وغيرها ومجموعة متكاملة للرموز والعلامات العلمية والرياضية.

١٥ - إنشاء ورشة لصيانة الكتب وترميمها وتجليدها وتقديم جميع التسهيلات للتصوير بأنواعها المختلفة.

كان المفروض أن تفتتح المكتبة فى يوليو ١٩٩٥ حسب الخطة المرسومة لها والتى يشملها الجدول المعلن من قبلها بمائتى ألف كتاب وألف وخمسمائة دورية ولكن بما أنه قد انقضى ذلك الأجل بخمس سنوات ولم تفتتح المكتبة فإننا نتوقع أن يكون رصيد المكتبة الآن قد وصل إلى ٤٠٠,٠٠٠ كتاب و٣٠٠٠ دورية ولكن الحقيقة ورغم تكتم إدارتها عدد الكتب التى تم اقتناؤها وإعدادها، وعدد الدوريات فإن المكتبة لم تجمع حتى الآن مائة ألف مجلد وألف دورية، ولأننا لا نعرف متى تفتتح المكتبة حتى الافتتاح المبدئى التجريبى فإن ما جمع من كتب ودوريات هو أقل بكثير مما قدر له.

وهناك أسباب ونتائج فى نفس الوقت لهذا التباطؤ فى جمع المقتنيات، ومن الأسباب الرئيسية عدم وجود تحديد قاطع لهوية المكتبة وبالتالى عدم تحديد من سوف تخدمهم المكتبة وبالتالى عدم وجود سياسة للاقتناء، سياسة واضحة ومحددة وإذا كان القرار الجمهورى قد جاء واسعًا فى أهدافه فكان أجدر بإدارة المكتبة أن تضع لائحة داخلية تصوغ فيها أهدافها بدقة وتحدد هويتها بوضوح وترسم سياسة التزويد حسب الظروف والإمكانيات والهوية ولكن ذلك كله لم يحدث فحدثت عشوائية التزويد وبناء المجموعات. إن السبب الرئيسى فى هذا الأمر كله هو عدم وجود متخصصين فى المكتبات والمعلومات وبالتالى ترك الأمر برمته إلى الهواة وغير المتخصصين.

ولقد طالب الدكتور عبد اللطيف إبراهيم أستاذ الوثائق فى كلية الآداب - جامعة القاهرة فى نشرة مكتبة الإسكندرية عدد يونية ١٩٩٢ بنقل المخطوطات وأوائل

المطبوعات الموجود فى مكتبة بلدية الإسكندرية (مكتبة محافظة الإسكندرية الآن) إلى مكتبة الإسكندرية. وبالفعل تم نقل مجموعة المخطوطات إلى المكتبة الجديدة وقد تم ترميمها وصيانتها من التلف فى المعمل الذى قدمته إيطاليا هدية للمكتبة الجديدة كما جرى إعداد قاعدة بيانات ببليوجرافية لتلك المخطوطات التى تقترب من خمسة آلاف مخطوط. وسوف تتلو هذه الخطوة خطوات أخرى للحصول على المخطوطات وأوائل المطبوعات المبعثرة فى أنحاء متفرقة من محافظة الإسكندرية مثل مخطوطات مسجد المرسى أبو العباس وغيره.

إن غياب تحديد هوية المكتبة يؤثر حتماً فى مسيرتها ولابد بادىء ذى بدء وقبل أن يستفحل الأمر من أن نقف وقفة علمية ونسأل أنفسنا سؤالاً مؤداه ماذا نريد لمكتبة الإسكندرية أن تكون:

هل نريدها مكتبة عالمية؟

هل نريدها مكتبة وطنية ثانية لمصر؟

هل نريدها مكتبة جامعية لجامعة الإسكندرية؟

هل نريدها مكتبة بحث متخصصة؟ وفى أى مجال؟

هل نريدها مكتبة عامة بديلة لمكتبة البلدية؟

بالنسبة للسؤال الأول وقد أجبنا عليه من قبل بالاستحالة ومن ثم بالنفى، ونضيف هنا أنه لا توجد سوى مكتبة واحدة فى العالم يمكنها الادعاء بالعالمية وهى مكتبة الكونجرس التى أنشئت سنة ١٨٠٠م وقد وصلت مقتنياتها فى نهاية القرن العشرين إلى نحو ١٢٠ مليون قطعة ويعمل بها ستة آلاف موظف وتبلغ ميزانيتها الآن نحو نصف مليار دولار ولها مكاتب فى أنحاء متفرقة من العالم لجلب مصادر المعلومات لها من تلك الأنحاء، وتتمتع بالإيداع القانونى. هذه المكتبة يدخلها كل صباح نحو ٢٠,٠٠٠ قطعة بمعدل سبعة ملايين قطعة فى السنة ومع كل هذه الضخامة فى كل شىء إلا أن المكتبة لم تقل فى يوم من الأيام أنها تجمع كل، لأن هذا الكل مستحيل،

وربما تستخدم المكتبة كلمة (جل) أو (معظم) أو (أهم).

ورغم ضخامة وأمكانيات المكتبة البريطانية، والمكتبة الوطنية الفرنسية، ومكتبة لينين فى روسيا ومكتبة الدايت فى اليابان فإن أياً منها لم يجرؤ على تحديد كلمة الكل أو كلمة العالمية هدفاً له يسعى إليه.

وبالنسبة للسؤال الثانى (مكتبة وطنية ثانية لمصر) نقول بأن لمعظم دول العالم مكتبة أم تعرف بالمكتبة الوطنية هذه المكتبة الوطنية تسعى إلى:

١ ـ جمع كل الإنتاج الفكرى الوطنى بكل صوره وأشكاله ولغاته ومستوياته ويساعدها فى هذا الصدد قانون أو تشريع يصدر لها يعرف بقانون الإيداع.

٢ ـ جمع عيون الإنتاج الفكرى الأجنبى أى أهم ما فيه وتحدد كل مكتبة الدوائر التى تدور فيها عملية اقتناء هذا الفكر الأجنبى من حيث العدد والشكل والموضوع والمستوى.

٣ ـ إصدار البيليوجرافية الوطنية التى تحصر وتسجل وتصف الإنتاج الفكرى الوطنى.

ولظروف خاصة قد يكون فى الدولة الواحدة أكثر من مكتبة وطنية واحدة إما على أساس جغرافى أو أساس موضوعى أو أساس شكلى. كأن ترغب الدولة أن يكون هناك مكتبة وطنية فى مناطق مختلفة بها حتى لا يضطر المواطنون إلى الارتحال للعاصمة لاستخدام المكتبة الوطنية الوحيدة بها، كذلك قد ترغب الدولة فى تخفيف العبء على المكتبة الوطنية الواحدة فتقسم هذا العبء موضوعياً على أكثر من مكتبة أو تقسمه شكليًا على أكثر من واحدة. تعدد المكتبات الوطنية على أسس مدروسة فى البلد الواحد قائم ومعمول به. ومن هنا فإن مكتبة الإسكندرية يمكن أن تصبح مكتبة وطنية ثانية لمصر بعد دار الكتب المصرية التى أنشئت سنة ١٨٧٠م، ونجد فى مكتبة بلدية الإسكندرية بذرة هذا الاتجاه حيث أنشئت تلك المكتبة فى نهاية القرن التاسع عشر بعد دار الكتب المصرية وكانت تتمتع بالإيداع القانونى حيث تحصل على نسخة من كل ما ينشر من إنتاج فكرى مصرى طبقًا لأحكام القانون ٢٠ لسنة ١٩٣٦. فإذا أصبحت

مكتبة الإسكندرية الجديدة مكتبة وطنية لشمال الدلتا فإنها يمكن أن تستوعب مكتبة البلدية ومن ثم تستوعب قرنًا كاملاً من الإنتاج الفكرى والمقتنيات وتتمتع بالإيداع القانونى وهو أمر سهل الوصول إليه وتحقيقه.

أما بالنسبة للسؤال الثالث وهو (مكتبة جامعية لجامعة الإسكندرية) فقد كانت هذه هى الصيغة المطروحة لمكتبة الإسكندرية طالما كان المشروع فى حوزة جامعة الإسكندرية أما بعد أن سحب من الجامعة وأعطى الصبغة الوطنية فإنه لم يعد فى الإمكان طرح هذه الصيغة مرة ثانية لأن المشروع أصبح أكبر بكثير من أن يكون مجرد مكتبة جامعة تخدم مناهج دراسية محددة ومجتمعًا أكاديمياً محدودًا بل وميزانية محدودة تقصر عن الوفاء بالتزامات مكتبة كبيرة بهذا الشكل. ومن المعروف أن جامعة الإسكندرية قد صفّت مكتبة الجامعة التى كانت تضم مجموعات الكتب ونقلت مجموعة المخطوطات والخرائط والكتب النادرة إلى ما يعرف بالمكتبة العلمية (الدوريات + المصغرات الفيلمية) والاعتماد الرئيسى الآن هو على مكتبات. الكليات وتعويضاً لجامعة الإسكندرية عن سحب المشروع وإعطائه الصبغة الوطنية قررت المادة السادسة من القرار الجمهورى أن تتولى جامعة الإسكندرية دعم تنفيذ مشروع إحياء مكتبة الإسكندرية علميًا وأكاديمياً وفقًا للنظم التى يقررها مجلس إدارة الهيئة بالاتفاق مع مجلس الجامعة. وطبقا لهذه المادة فإن الدعم يأتى من جانب الجامعة وليس العكس، إلا أنه من المفهوم لدى إدارة المكتبة أن توضع احتياجات الجامعة من الكتب وغيرها من المواد المكتبية موضع الاعتبار عند تزويد المكتبة بالمصادر كذلك فإنه من المقرر مد جسر أى كوبرى علوى بين المكتبة والمجمع النظرى للجامعة عبر شارع بورسعيد. ومن هذا المنطلق فإن السؤال المطروح بجعل المكتبة مكتبة جامعية لجامعة الإسكندرية لا مكان له وقد نبذ جانبًا الآن.

أما السؤال الرابع (مكتبة بحث متخصصة وفى أى مجال) فقد لقى ارتياحًا عامًا لأنه أقرب إلى طبيعة المكتبة القديمة، التى كانت عبارة عن أكاديمية أو مركز معلومات يخدم الموسيون. ومن المعروف فى زماننا الآن أن المكتبة المتخصصة لابد وأن تقتصر على مجال محدد تتعمق التجميع فيه وتخدم الباحثين والعلماء فى هذا المجال فأى المجالات ترى تصلح لكى تتخصص فيه المكتبة الجديدة. إن مكتبة مثل مكتبة الكونجرس أو

المكتبة البريطانية أو الفرنسية قد غطت ويتعمق جميع فروع المعرفة البشرية ومن فترة طويلة تمتد عبر قرون فهل تجد مكتبة الإسكندرية مجالاً تنافس فيه وتثبت وجودها وتبز فيه المكتبات القائمة الراسخة سواء الوطنية أو الجامعية أو المتخصصة.

لقد رأى كل من الدكتور لويس عوض والدكتور محمد محمد أمان أن تتخصص المكتبة فى كل ما له علاقة بحوض البحر الأبيض المتوسط من جغرافيا إلى تاريخ إلى فلسفة إلى اجتماع إلى كيمياء وطبيعة وأدب ولغة... منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا. ومن هنا تتحول المكتبة فعلاً إلى مركز بحوث ودراسات متخصصة فى هذا المجال ويمكنها أن تنافس فيه وتحافظ فعلاً على الصبغة العالمية وتنشد فى نفس الوقت مساعدة دول حوض البحر الأبيض المتوسط كله، خاصة وأن هناك برامج للتعاون بين تلك الدول فعلاً سواء على مستوى الدول أو على مستوى المؤسسات كالجامعات مثلاً. ويطور الدكتور لويس عوض اقتراحه هذا باقتراح آخر يدعو فيه إلى إنشاء معهد علمى ينشأ بين أحضان المكتبة على مستوى الدراسات العليا يمنح درجة الدكتواه فى دراسات حوض البحر الأبيض المتوسط.

أما بالنسبة للسؤال الخامس (مكتبة عامة بديلة لمكتبة البلدية)، فإن طرح صيغة المكتبة العامة يتطلب منا بادىء ذى بدء أن نضع أيدينا على خصائص المكتبة العامة، حيث هى:

١ ـ تفتح أبوابها وتقدم خدماتها لجميع طوائف الشعب دون تمييز بين سن وسن وطبقة وأخرى وبين جنس وجنس ودين ودين ومستوى تعليمى وآخر.

٢ ـ تجمع مصادر المعلومات فى جميع فروع المعرفة البشرية ومن كل الأشكال (كتب ـ دوريات ـ مواد سمعية بصرية ـ مصغرات فيلمية ـ ملفات الحاسب الآلى ـ أقراص الليزر ـ الوثائق)، وبمستويات المعالجة المختلفة.

٣ ـ أنها تقدم خدماتها بالمجان وبدون أى مقابل، حيث هى خدمة عامة للشعب.

٤ ـ أنه لا إكراه ولا إجبار على ارتياد المكتبة العامة.

ومن هذه الخصائص نجد أن المكتبة العامة هى عمل محلى بحت ومن غير المقبول

أن نطلب مساعدات دولية لإنشاء مكتبة عامة، ومن جهة ثانية لا يوجد فى العالم مكتبات عامة مليونية إلا فى حالتين فقط هما مكتبة نيويورك العامة ومكتبة بوسطن العامة فى الولايات المتحدة. ومن ثم فإن تحويل مشروع عالمى مثل مكتبة الإسكندرية إلى مجرد مكتبة عامة قد يكون أمراً مرفوضًا على المستوى المهنى وعلى المستوى العالمى. ولذلك ينصح الخبراء بإبقاء مكتبة بلدية الإسكندرية كمكتبة عامة وعدم المجازفة والمخاطرة بتحويل المكتبة الجديدة إلى مكتبة عامة.

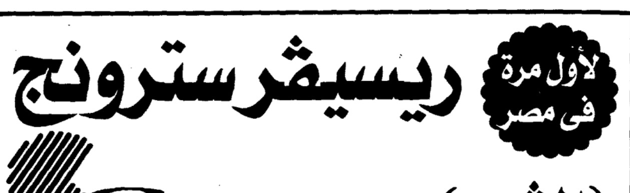
من هذه المنطلقات جميعاً فإن الصيغتين المقبولتين لهوية مكتبة الإسكندرية الجديدة هما: إما مكتبة وطنية لشمال الدلتا وإما مكتبة بحوث متخصصة فى دراسات حوض البحر المتوسط. وفى كلتا الحالتين فإن الصبغة البحثية ستكون من نصيب هذه المكتبة. والذين يرون أن تصبح مكتبة وطنية لشمال الدلتا يحبذون فى الوقت ذاته إنشاء مكتبة وطنية ثالثة فى جنوب الوادى وبالتالى يصبح لدينا ثلاث مكتبات وطنية لتغطية مصر كلها: دار الكتب المصرية بالقاهرة؛ مكتبة الإسكندرية الجديدة؛ مكتبة جنوب الوادى ويقترحون لها مدينة سوهاج على أن مكتبة رفاعة رافع الطهطاوى نواة لها بما فيها من مقتنيات رائعة مخطوطة ومطبوعة.

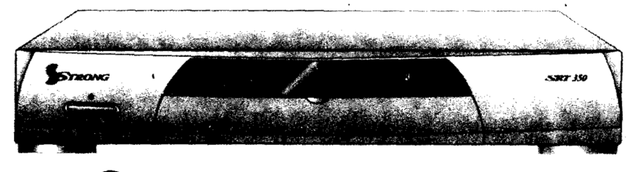
ومن جانبى فإننى أميل إلى الرأى القائل بجعل مكتبة الإسكندرية الجديدة مكتبة بحوث متخصصة فى دراسات حوض البحر الأبيض المتوسط حيث يمكنها المنافسة فيه وشق طريقها إليه.

فإذا حددت هوية المكتبة على أى نحو من النحوين السابقين فإن من السهل بعد ذلك رسم سياسة التزويد بمنتهى الاطمئنان والتحديد ومن ثم يمكن تشكيل أنواع الخدمات التى تقدمها المكتبة ونوع المستفيدين الذين يفيدون من تلك الخدمات.

ولقد بلور الرئيس حسنى مبارك فى خطبته فى ختام الاحتفال بصدور إعلان أسوان التاريخى العالمى فى ١٢ من فبراير ١٩٩٠ هذا المعنى حين قال:

«نرجو أن تضم مكتبة الإسكندرية الأكاديمية كل الوثائق والموسوعات والمؤلفات القديمة والحديثة التى تتصل بمصر وحوض البحر المتوسط وإفريقيا والشرق الأوسط مع الاهتمام بصفة خاصة بالإسكندرية».


لأول مرة
فى مصر
ريسيفر سترونج


STRONG
SRT 350

32
1
06277715